مختار الأخبار

تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هـ

تأليف بيبرس المنصوري

نائب السلطنة في مصر «المتوفى سنة ٧٢٥ هجرية»

حققه وقدم له ووضع فهارسه

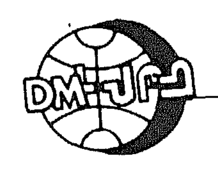
دكتور عبد الحميد صالح حمدان

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



الدار المصرية اللبنانية   طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH   PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX. 3909618 CABLE DARSHADO



بسم الله الرحمن الرحيم



بســـم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة المحقـــق

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، والصلاة والسلام على نبينا محمد خير البرية وسيد الورى ، وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى ، وأولى المودة والصفا ، وبعـــــد ؛

فإن تاريخ مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك ، يعتبر من أهم التواريخ المصرية . فهو تاريخ حافل بالأحداث والتغييرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، دخلت فيه مصر حقبة تاريخية جديدة بعد حكم الفاطميين الشيعة لها طوال قرنين من الزمان ؛ فقد تعرضت البلاد أثناء هذه الحقبة لأخطر نوعين من الغزو العسكرى ، وهما : الغزو المغولى (التتار) القادم من الشرق ، والغزو الأوروبى (الفرنجة) القادم من الغرب ؛ كل ذلك طمعاً فى موقعها الجغرافى المتميز ، وفى ثروتها الاقتصادية والبشرية والعمرانية التى كانت تنعم بها فى تلك الأيام .

ولقد كانت مصر بالفعل فى تلك العصور على درجة كبيرة من الازدهار فى مختلف المجالات ، وهو ما أطنب فيه المؤرخون من السلف والخلف .

* * *

ومما لا شك فيه أن الدراسات الأيوبية والمملوكية قد تقدمت تقدماً كبيراً

فى العقود الأخيرة ، وأصبح لدينا ذخيرة طيبة من المخطوطات المحققة والمنشورة . ومازال المجال مفتوحاً أمام الباحثين والعلماء لكى يتحفونا بالمزيد من هذه المؤلفات التى لا غنى عنها للتعرف على هذا العصر ، وعلى هذه الحقبة التاريخية الهامة ، ولا سيما منها المؤلفات التى كتبها مؤرخون من المشهود لهم بالأصالة والأمانة ، ومن الذين عاصروا الأحداث وعايشوها من أمثال بيبرس المنصورى .

بيبرس المنصورى

حياته وأعماله :

لقد أوردنا فى مقدمة تحقيقنا لكتاب « التحفة الملوكية » [1] نبذة عن سيرة مؤلفه الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورى الدوادار الخطائى . وقلنا إنه وصل إلى مصر عام ٦٥٩ هـ وهو شاب لا يزيد عمره على خمسة عشر عاما وفى ذلك يقول بيبرس المنصورى [2] .

« وفى هذه السنة (٦٥٩ هـ) اتفق وصولى إلى الديار المصرية صحبة الطواشى مجاهد الدين قايماز الموصلى ، خادم الملك الرحيم صاحب الموصل . فاشترانى منه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، واشترى منه مملوكا آخر خوشداشا له يسمى أيبك الموصلى . وكان السلطان ساكنا بحارة البندقايين بالقاهرة المحروسة ، فرتبنى فى المكتب [3] ، ولطف الله بى وعلمنى كتابه العزيز ، وشرفنى بدراسة القرآن الكريم لطفا من رب العالمين .

فالحمد لله الذى هدانى لدينه المحقوق واصطفانى

---

(١) التحفة الملوكية فى الدولة التركية ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ص ٦ وما بعدها .

(٢) زبدة الفكرة ، مخطوطة المتحف البريطانى رقم ٢٣٣٢٥ ، الورقة ٥٢ .

(٣) المدرسة المخصصة لأولاد السلطان .

مذ كنت معدودا من الصبيان وجـــاء لى بالفهـــم والتبيـــان
أسألـه فى الـسر والإعـلان خاتمة الإخـــلاص والغفـــــران

وكان ترتيبه فى المكتب يعنى إعداده ليكون من كبار المماليك من ذوى المسئولية ، وهو ما حدث له تماما بعد أن تدرج فى مختلف المراتب ، يقول بيبرس المنصورى فى حوادث سنة ٦٣٤ هـ :

« وكنت قد حضرت الغزاة (على قيساريه وأرسوف) مع الخميس ، وكنت إذ ذلك الوقت فى خدمة الأمير سيف الدين المخدوم (قلاوون) أُجُرُّ الجُنب [١] فى سن المراهق أو قريب » .

ويستطرد بيبرس المنصورى فى ذكر تدرجه فى الوظائف لدى مخدومه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى قائلا : « وفى سنة ٦٧١ هـ ، نقلنى الأمير المخدوم من النقدية [٢] أرباب الجامكية إلى الإقطاعية ، فأعطانى خبزا [٣] من أخباز عدته ، عبرته [٤] مائة وخمسون أردبا . فهو أول خبز أكلفته فى خدمته ، ثم ترقيت فى نعمته ..... » .

وفى سنة ٦٨٢ هـ ، أصبح من جملة أمراء السلطان المنصور قلاوون ، وفى هذا يقول بيبرس المنصورى : « وفى هذه السنة (٦٨٢ هـ) أنعم السلطان على بعِدَّة خمسة عشر طواشيا [٥] ، وشملتنى سعادة آرائه بأن صيرتنى من جملة أمرائه . وكان هذا دأبه فى سائر خدامه أن يرفع مراتبهم فى أيامه » .

وقد أورد فى زبدة الفكرة نسخة خطبة المنشور الشريف الذى صدر فى هذا

---

(١) وجمعها الجنائب أى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة إليها .
(٢) أصحاب الرواتب من المماليك .
(٣) زبدة الفكرة : الورقة ١٥٢ ؛ واستعملت كلمة « خبز » للإقطاعات المتوسطة الحجم .
(٤) العبرة : هى القيمة الضريبية المتوسطة للإقطاعات الممنوحة للأجناد .
(٥) أى خادِما ، وانظر السبكى ، مفيد النعم ، ص ٣٩ . (بيروت ١٩٨٥) .

الشأن ، وهى من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، ونصها كالآتى : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله الذى علم بالقلم ، وجعله مُؤاخى السيف فى مُهمات الأمم ، وطاول به السمهرى فنصب هذا لرفع العلم ، وهذا الجرّ القلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بأنواع الحكم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما تبسّمت ثغور الدِّيَم وشابت بالأنوار لمم الظُّلَم .

فإنه لما كان المجلس السامى الأمير الأجل الكبير المختار المجاهد الأوحد الأغر المرتضى الأكمل ركن الدين ، مجد الإسلام ، شرف الخواص ، بهاء الأمة ، غرسُ الدولة ، واسطة المملكة ، اختيار الملوك والسلاطين ، بيبرس الدَوادار المنصورى ، أدام الله رفعته وسموه ، ممن رَبَّتْهُ النَّعْماء فى حِجْرِها ، وصرفته الآلاء فى نَهيها وأمرِها ، وأنشأته المملكة تحت جناحها ، ورَتبته السلطنة فى حَمل ما هو أفخر وأفخم من حمل سلاحها ، وحَبَتهُ كل ما يستدعى عطفها ، ويستديم شكرها له ووصفها ، ويكون أحد مُعقّباتها التى ما بين يديها من الأمر ، ولسواه من ذوى الأسلحة ما خلفها ، وله نباهَةُ تُقَدِّمُه ، ووجاهة تُفخمه ، وقدم خدمة تُرشحه ، وعظم حُرمةٍ توسع له مجال الاصطفاء وتفسحه ، اقتضى حسن الرأى الشريف أن ينمىَّ هِلاله ، ويدرج إقباله ، ويقرب مناله ؛ فلذلك خرج الأمر العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى السيفى ، لا برح بجوده وباستخلاصه يُسَوّد من الأولياء من يسود ، أن يجرى فى إقطاعه ما رسم له الآن من الإقطاع لخاصه ولمن يستخدمه من الأجناد الجياد المعروفين بالخدمة بالبَرك (٢) التام

---

(١) الورقة ١٥٢ من زبدة الفكرة .

(٢) أى المتاع الخاص من ثياب وقماش .

ولما كان المجلس السامى الأمير الأجل الاسفهسلار الأوحد المجاهد العضد ركن الدين فخر الإسلام ، شمس الأنام ، شرف الأمراء المقدمين ، عضد الملوك والسلاطين بيبرس الدوادار الملكى المنصورى، نائب السلطنة بالكرك المحروس ، فهو أسارير هذا الجبين ، وفحوى هذا اليقين .

اقتضى حسن الرأى الشريف أن خرج الأمر العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى السيفى ، زاده الله علاء ونفاذا ومضاء ، أن يجرى فى إقطاعه ما رسم به له الآن من الإقطاعات بالأعمال الشامية لخاصه ولمن معه ولمن يستخدمه من الأجناد الجياد المعروفين بالخدمة بالبرك التام والعدة الكاملة ، بعد ارتجاع ما بيده بالديار المصرية والعدة خاصّة وثمانون طواشيا خارجا عن الملك والوقف عن الأمير علم الدين سنجر الدوادار الصالحى على عادته فى الدربستة . وذلك لاستقبال فعل سنة خمس وثمانين وستمائة » .

وفى سنة ٦٩٣ هـ ، أنعم السلطان عليه بمائة فارس وتقدمة ألف ، وسلم إليه ديوان الإنشاء والنظر عليه والحديث فيما يصدر عنه ويرد إليه . وكتب له بهذا الإقطاع منشور نورد نسخته فيما يلى :

« الحمد لله الذى أوى مصالح دولتنا الشريفة من الكفاة إلى ركن شديد ، وخصها منهم بكل ذى فعل حميد ، ورأى سديد ، وجعل معروفا إليهم ، يعيد أحسن ما يبدى ويبدى أحسن ما يعيد . نحمده على نعمة أولاها ومِنّة ناسَبَ بين أخراها وأولاها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجلو القلوب ، وتتكفل من الغفران بكل مطلوب ونشهد أن محمدا عبده ورسوله خير نبى أرسل إلى خير أمة ، وبعث بأنوار الهداية وليالى الكفر مدلهمة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا ينقطع مددها ولا ينحصر عددها ، وسلم تسليما كثيرا » .

وبعد ؛ فإن لقدم الهجرة فى الموالاة حقوقا ترعى وحرمة تستحق تخويل

النعماء وترا وشفعا لا سيما من ربى فى حجر المملكة أحسن مربى ، واتصف من الصفات الجميلة بما أرضى به مخدوما وربا ، واجتهد فى تشييد مبانى الدولة الزاهرة عند الاحتياج إليه ، وفى المقصود من المناصرة والمؤازرة والمضافرة عند الاتكال عليه ، وقام فى وجه من خرج عن الطاعة ، ولم تأخذه لومة لائم فيه ، وشد عضد وليه بانضمامه إليه والمرء كثير بأخيه . ووفى وغيره قد غدر ، وعفى أثر من أراد إفساد ذات البين وما عفا عندما قدر ، وكان المجلس العالى الأميرى الأعالى الأجلى العالمى العادل العضدى النصيرى الذخرى الظهيرى الركنى عز الإسلام والمسلمين . شرف الأمراء فى العالمين ذخر الغزاة لسان الدولة سفير المملكة عضد الملوك والسلاطين بيبرس الدوادار الملكى المنصورى الناصرى ، ضاعف الله نعمته وسعادته ، هو بيت هذا القصيد وواسطة هذا النضيد ، والذى أومأ إليه بنان هذه المدايح وتغنى بوصف مناقبه الغادى والرايح ، إذا ذكرت البلاغة فهو إمامها أو الكتابة فبيده زمامها . وإن امتطت أنامله جواد القلم فهو به المجيد أو اشتملت راحته على السيف فمن ذا عن فتكه يحيد أو اعتقل رمحا فلا يحمى منه حصن مشيد ولا عمر حديد . يقول فتطرب الأسماع عند مقاله ويؤدى الرسايل فتعجب الأفكار من حسن استرساله ، لا يخرج فيها عما اعتاده من صدق اللسان ، ولا يتحمل منها إلا ما جمع من الحسن والإحسان . قد تنزل من المملكة منزلة اليد الباطشة إلا أنها اليمين ، واللسان الناطق إلا أنه لا يمين . يتحمل الدست منه بخير أمير آمر والدولة بأجل مناضل مناظر ، والكتايب بأشجع الشجعان ، والكتب بما يضمنها من اللفظ الذى طالما قام فيه تأثير اللسان عن تأثير السنان .

ولما علمت الأقلام ما استوجبه عليها من حقوق ، وتحققت من فضله ما أخفوه طرف من العقوق ، أدت مفترض حمده فى محراب هذا الطرس راكعة ساجدة ووفت ديون تقريظه وكيف ولا وهى بالامتداد منه واجدة . فخرج الأمر الشريف العادلى المولوى السلطانى الملكى الناصرى ، لا زال يضاعف للأولياء

التحويل ويجزل لهم التنويل ، أن يجرى فى إقطاعه ما رسم له به الآن من الإقطاع والجهات الديوانية لخاصته ولمن يستخدمه من الأجناد الجياد المعروفين بالخدمة » .

وكان السلطان يلجأ إليه فى كبار المهمات ويكلفه بالمأموريات الضخام . فقد حدث فى سنة ٦٩٤ هـ ، أن انتشرت المجاعة فى مصر ، وكان بيبرس المنصورى آنذاك فى ثغر الاسكندرية ، فأنيطت به مهمة « توزيع الصعاليك الذين فيه والواردين إليه على الأملياء والفقراء على الأغنياء . فتولى أمر توزيعهم على التجار وأرباب المعايش والأيسار ووظف على نفسه منهم جماعة ، وأجرى عليهم جاريا قام بأودهم إلى أن انقضت المجاعة وتواصلت الغلال إلى الاسكندرية وتواترت من جزيرة صقلية والقسطنطينية وبلد الفرنجة [١] » .

وفى نفس هذه السنة كلفه السلطان بالتوجه إلى عربان برقة الذين كانوا قد عبثوا بالمسلمين وباعوا منهم جماعة للفرنج ، وأن منصور بن رَوّق كان الباعث على بيعهم بسبب الغلاء الذى عم تلك البلاد [٢] .

وانتدب فى سنة سبعمائة هجرية لإخماد الفتنة التى نشبت بين عربان بلاد البحيرة [٣] .

وفى السنة التالية عزم على الحج إلى بيت الله الحرام وتأدية الفرض الواجب على من استطاعه ، فندبه السلطان للتقدم على الركب المصرى أميراً للحج ، وكان ركبا كبيرا قد جمع خلقا كثيرا [٤] .

---

(١) زبدة الفكرة ، الورقة ١٨٩ .

(٢) زبدة الفكرة ، الورقة ١٩٣ .

(٣) زبدة الفكرة ، الورقة ٢٢١ .

(٤) زبدة الفكرة ، الورقة ٢٣٢ .

وجرده السلطان الناصر قلاوون لغزو سيس وخرج معه فى معظم غزواته .

ثم عينه فى نيابة العدل الشريف والنظر على الأوقاف المبرورة المنصورية والشامية فى سنة ٧٠٩ هـ .

وتقلد بيبرس المنصورى ذروة مناصبه عندما عينه السلطان فى نيابة السلطنة سنة ٧١١ هـ .

ولكنه لم يلبث أن غضب عليه نتيجة الوشاية به ، وقبض عليه واعتقله فى الكرك سنة ٧١٢ هـ .

وعاد السلطان فأفرج عنه وخلع عليه عام ٧١٧ هـ ، أى بعد أن أمضى خمس سنوات فى الاعتقال وأعطاه إقطاع الأمير علاء الدين مغلطاى وإمرته وتقدمته فى سنة ٧١٨ هـ . وبعد أن أدى بيبرس المنصورى فريضة الحج مرة ثانية فى سنة ٧٢٤ هـ ، وافته المنية فى ليلة الخميس الخامس والعشرين من رمضان سنة ٧٢٥ هـ عن عمر يناهز الثمانين [١] .

* * *

ومع كل هذه الحياة الحافلة بجلائل الأعمال والوظائف ، أتحفنا بيبرس المنصورى بمؤلفه الضخم فى التاريخ « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » ، و « التحفة الملوكية فى الدولة التركية » . وترك لنا كذلك تفسيراً للقرآن الكريم سماه ، « مواعظ الأبرار » . ومن الكتب المنسوبة إليه التى لم تصلنا ، نذكر كتاب « اللطائف فى أخبار الخلائف » الذى ربما كان هو نفسه كتاب « مختار الأخبار » الذى بين أيدينا والذى نسب بالخطأ إلى سكرتيره القبطى القس ابن كبر .

---

(١) أبو المحاسن ، المنهل الصافى ، ١٠٣ ، وابن العماد ، شذرات الذهب ٦٦/٦ .

وصف مخطوطة « مختار الأخبار » .

ولقد نشأ هذا الخطأ من جراء قيام مفهرس المخطوطات العربية المحفوظة بمكتبة الأمبروزيانا ، بنسبة هذه المخطوطة إلى القس ابن كبر اعتماداً على ورود اسمه فى العنوان ، الذى جاء على النحو التالى :

« هذا مختصر تاريخ المقر الركنى بيبرس الدوادار تغمده الله برحمته . ويسمى مختار الأخبار « عنى بجمعه القس الشمس ابن كبر نيح الله روحه » .

وعلى الرغم من ذلك ، لا يسع المطالع المتأنى إلا التحقق من أن هذا العنوان [1] قد أضيف فى تاريخ لاحق ، وبيد مختلفة وبعد كشط ما كان مدونا فى الأصل ، وهو ما اتضح لنا بعد المقارنة والبحث . ويتمشى هذا الرأى مع ما ذكره الأستاذ « غراف » فى كتابه [2] من أن هذه المخطوطة لا تمت بصلة إلى ابن كبر ، رغم ورود معظم التواريخ بلغات مختلفة مثل السريانية (الآرامية الغربية) والقبطية وغيرها .

ثم إن القراءة الكاملة والمتأنية للمخطوطة تقودنا إلى إثبات الرأى القائل بأن هذه المخطوطة هى من مؤلفات بيبرس المنصورى ، حيث ورد اسمه صريحا فى عدة مواقع من المخطوطة بوصفه المصنّف لهذا التاريخ [3] :

وربما اقتصر دور ابن كبر على عملية النسخ والتبييض [4] .

ولا شك أن هذا التحريف الذى طرأ على عنوان المخطوطة يضع الباحث

---

(١) انظر اللوحة رقم ١ .

(٢) G. GraF, Geschichte der ChrisTlichen Arabischen'literatur, Citta del vaticano, 1944 - 53, vol II,p. 443

(٣) انظر الورقة ٩٧ والورقة ٩٩ ب والورقة ١٠٦ ب من المخطوطة ، واللوحة رقم ٢ .

(٤) انظر مقالى المعنون « Un nouveau manuscrit attribué á Baybars al - mansúri, studia Islamica , Nº 67 (1988), pp. 151 et sunivants .

أمام لغز يصعب حله ، ويوقعه فى بلبلة وشك من أمر العنوان ذاته ، لا سيما وأنه لم يرد ضمن مصنفات بيبرس المنصورى مؤلف بهذا الاسم . فهل هو نفسه الكتاب الذى لم يصلنا والذى نسبه إليه السخاوى تحت عنوان « اللطائف فى أخبار الخلائف » ؟ (١) أم أنه مجرد مختصر لتاريخه الكبير « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » ؟ والواقع أنه من الصعب القطع برأى نهائى فى هذا الشأن مالم نعثر على مخطوطة أخرى سليمة لهذا الكتاب لم تعبث بها يد التحريف . ولذلك رأينا بعد التردد الشديد الاحتفاظ بهذا العنوان مجبرين لا أبطالا ، ومع ما فى ذلك من مآخذ ومزالق .

وصـــــف المخطوطـــة :

سبق أن ذكرنا أن هذه المخطوطة محفوظة فى الأمبروزيانا وقد وردت : فى كتالوج هذه المكتبة تحت رقم A - cxc 11 (٢) وهى تشتمل على ١٠٨ ورقة (٢١٦ صفحة) مقياسها ٢٦ × ١٨ سم ومسطرتها ١٧ سطرا ، وهى مكتوبة بخط النسخ الواضح . وتضم هذه المخطوطة عدة تواريخ هى :

١ – التاريخ من آدم وإلى إبراهيم وموسى وملوك بنى إسرائيل .

٢ – تاريخ ملوك الروم واليونان .

٣ – تاريخ الخلفاء من عهد النبى ﷺ .

٤ – تاريخ الفاطميين والأيوبيين والمماليك فى مصر حتى سنة ٧٠٢ هـ حيث تتوقف المخطوطة لضياع بقيتها .

أسلوب بيبرس المنصورى فى هذه المخطوطة :

اعتمد بيبرس المنصورى فى هذه المخطوطة الأسلوب السردى للأحداث

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مادة Baybars al - Manṣūrī .

(٢) انظر كتالوج الامبروزيانا ، المجلد الأول ، ١٩٧٥ ، ص ٧١ .

التاريخية ، دون اللجوء إلى السجع أو المحسنات البديعية ، وهو أسلوب يتلاءم والكتابات التاريخية ويتيح المزيد من السهولة والوضوح والدقة ، كما أنه تحاشى منهج الحوليات الذى اعتاده المؤرخون فى عصره ، وتناول عصر كل سلطان من السلاطين الذين تربعوا على عرش السلطنة فى مصر كوحدة تاريخية قائمة بذاتها .

وقد قمنا فى هذا الكتاب ، بنشر الجزء الخاص بدولة الأيوبيين ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هـ وهو الجزء الذى يهمنا من هذه المخطوطة ، وهو يستغرق الورقات من ٣٩ ب إلى ١٠٨ ب (أى ٧٠ ورقة) . وهذا بطبيعة الحال لا يمنع من نشر الجزء الذى لم ننشره فى وقت لاحق .

طريقة التحقيق :

لقد خلت هذه المخطوطة من الأخطاء اللغوية والنحوية إلى حد كبير ، ولذلك لم نجد صعوبة فى قراءتها أو تحقيقها . وقد قمنا بتصويب ما صادفناه من أخطاء طفيفة دون الإشارة إليها فى الحواشى [1] .

ونظرا لأن هذه المخطوطة هى المخطوطة الوحيدة التى عثرنا عليها لهذا المؤلف ، ولانعدام مقارنة النصوص ومقابلتها إعمالا لقواعد التحقيق المتعارف عليها ، وتجنبا للزلل والخطأ ، فقد تداركنا هذا الأمر ، بقدر الإمكان ، بالرجوع إلى النصوص المنشورة التى كانت مرجعا للمؤلف ، أو التى نقلت عن هذه المخطوطة ، مع الإشارة إلى كل ذلك فى الحواشى .

* * *

والله هو الملهم للصواب والموفق للرشاد ، وهو حسبنا ونعم الوَكيل .

دكتور عبد الحميد صالح حمدان

---

(١) مثل تغيير الذال إلى دال والعكس ، وقد اعتاد الناسخ على قلبهما دائما .



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

هذا مختصر تاريخ الاثير الرهبي يليه ابن الدواداري عمل الله بسلامه

ويسمى مختار الاخبار على جمعه الشيخ الشمس ابن كبر رحمه الله

مبتدئا من ادم والى ابرهيم وموسى ومن بعد هولاء القضاة والملوك
الذين دبروا بني اسرائيل ثم ملوك الروم واليونان وكل منهم ومدة
سني مملكته وخلافته مجرياته الى مجي سيدنا المسيح المذكور صلى الله
عليه وسلم ومن بعد هولاء الى مملكة هرقل المشهور ومن بعده تسلم
المسلمين ويذكر من الخلفاء من عهد النبي صلى الله عليه وسلم واخرهم
العاضد لدين الله ابو محمد بن الحافظ ثم الدوله الايوبيه وهي
ثلثه عشر ملكا اولهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين
ايوب واخرهم نور الدين علي بن الملك المعز عز الدين ايبك التركماني
ثم من ها هنا يشرع بذكر الاباء البطاركة من ابيهم الاول مرقس
الانجيلي [illegible] والى الاب انبا [illegible] المعروف بابن كليل وهو
السادس والسبعين في العدد ويبين مجرياتهم ويبين ما استنطقوه
اليهود من سني العالم ليذكروا مجي المسيح ويبين ايضا مجيئه اليوم

وهذه المنثورات والمضمنات من الهدايا الى الوزير بالجبل وقدرها

ويضيفونه من الجوخ والشال والتفاصيل الاخر وابعثوا ذلك جميعهم

يعملوا اتفاقا كبيرا واتفقوا امر الفتنة والقتال وتجمعوا جميعهم وانا ايضا اذ

من بعد ان يتعرضوا لي ... الا انه الله اعلم ... وبعد

البيهانوب الى البلاد المصرية ابتدأنا ... ولاة ... وكان ... بعد

السلطان اولا وصحبته الامير ... الدين ... والامير ... الاخر

الباشا عسكر ... امين ... الدين ... والقادر ... الاذن

البقاول ... المسمى ... الى الاولاد ... لم يسلمه

ايضا بالقلعة ولما وردت الى ... اشتهرت انها حصينة بالمدينة

ودخلت العساكر اسوار ... وتغلبت ... البنادر بالقلعة اذا

انقطعت ولحقا الى البحر ... ثم تواصلت العساكر

كذلك مصر وكانت طائفة منهم وقت الهجمة من الهوية ... على جبل

طور المشهورة من اتباع البلاد ... نزلت اليهم الجبلية من الجبال ... ا

طائفة بعد طائفة وحفظوا عليهم مضايق الطرقات وسلبوهم وقتلوا منهم

جماعة ومن افلت منهم ... الى الديار ... من ... وما ...

... وكان ذلك على ... الشعثكاية من

البلاد ثم تواصلت العساكر الشامية ... وصل الى ...

ذكر ابتداء الدولة الأيوبية
وَمُلْكَهم

الأول : الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادى

تسلّم الملك بالديار المصريّة يوم وفاة العاضد فى يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ . وتوفى يوم الأربعاء بالكرك لثلاث بقين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة وبلغ عمره ستّاً وخمسين سنة وشهوراً .

وفى سنة سبعين وخمسمائة وصل إلى دمشق وتسلمّها بغير قتال . ثم خرج متوجها إلى حمص ، وصعبت عليه قلعتها ، فتوجه إلى حماة وملكها . ثم عاد إلى حمص وأخذها بعد قتال شديد ، ثم بعلبك ، ثم إلى حصن نارين [1] وفتحه . وفتح مَنْبج أيضاً .

وفى سنة ٥٧٢ هـ أمر بإنشاء سور [2] على مصر والقاهرة [3] . وابتدأ بالقلعة ، وعقيبها كانت وقعة الرّملة . ثم سار إلى عسقلان ، فسبى وأسر وغنم من الفرنج كثيرا وعاد إلى مصر .

وفى سنة ٥٧٥ هـ ، كانت وقعة مرج العيون بينه وبين الفرنج ، فأخذ منهم جماعة كبيرة .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله حصن يارين ، وهو بين حلب وحماة . ياقوت معجم البلدان ج ١ ، ص ٤٦٥ .

(٢) فى الأصل « سورا » .

(٣) انظر المقريزى ، السلوك ، ١-١ ، ص ٦٣ .

وفى سنة ٥٧٨ هـ ، بعث بأخيه ظهير الدين إلى اليمن فملكها .

وفى سنة ٥٧٩ هـ ، خرج إلى بيسان وطبريّة وجرى بينه وبين الفرنج قتال كثير . وفتح الرها والرقة ، ونصيبين ، وسنجار ، وآمد ، وحلب ، وميا فارقين .

وفى سنة ٥٨٣ هـ ، التقت معه الفرنج بصَفوريّة ، فأسر من الأسبتار خلقا كثيرا . وفيها تسلّم طبرية . وفيها كانت وقعة حطين ، فأخذهم باليد ، وأسر الملك كى (١) وأخوه ، وصاحب جبيل ، وهنفرى (٢) ، والأبرنس ، وأرناط (٣) صاحب الكرك فقتله بيده . وأخذ منهم صليب الصَلَبُوت (٤) . وكانت الوقعة يوم السبت . ولم يفلت من الفرنج إلا آحاد . وفتح عكا ومجدل ، ويافا ، والناصرة ، وصفورية ، وقيسارية ، ونابلس ، وغنم من الأموال ما لا يحصى . ثم فتح بيروت ، وصيدا ، وبنبين ، وجبيل ، وعسقلان بالأمان . وسار إلى بيت المقدس ، ونزل عليه يوم الأحد . وكان فيه ستون ألف مقاتل ، فتسلّمه بالأمان بعد أن قرّر على الفرنج كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ، وكل صغير وصغيرة دينارين . وكانت مدة مقام القدس مع الفرنج أحد وتسعون سنة . ثم حاصر صور ، ورجع عنها ولم يقدر عليها . ثم فتح هونين ، وانطرسوس وقتل من فيها . وفتح جبلة بالأمان . وفتح اللاذقيّة ، وحصن الكرك والشوبك ، وكوكب بالأمان .

وفى سنة ٥٨٧ هـ ، رجعت الفرنج [فـ]ـأخذت عكا بعد قتال شديد ،

---

(١) Guy .

(٢) Humphrey of Toron ، انظر المقريزى ، السلوك ، ١ - ١ ، ٦٧ .

(٣) Renaud de chatillon ، انظر المقريزى ، السلوك ، ١ - ٢ ، ص ٦٤ ، والحاشية ٥ .

(٤) وهو الصليب الأعظم عند المسيحيين ، ابن الأثير ، الكامل ، ٣٥٣/١١ . والمقريزى ، السلوك ، ١ - ١ ، ص ٩٣ ، والحاشية ٣ .

وقصدوا عسقلان فهدمها صلاح الدين يوسف . واستقر الملك بعده لولده الأفضل نور الدين .

الثانى : الملك العزيز عماد الدين عثمان بن يوسف بن أيوب .

مَلَكَ الديار المصرية يوم الأربعاء ، يوم وفاة أبيه لثلاث بقين من صفر سنة ٥٨٩ هـ . وخرج إلى الفيوم يتصيد ، فتَقَنْطَر وحُمَّ وحمل إلى القاهرة ، فمات بها ليلة الأحد حادى وعشرين المحرم سنة ٥٩٥ هـ .

الثالث : الملك المنصور محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب .

مَلَك مصر يوم وفاة والده حادى وعشرين المحرم سنة ٥٩٥ هـ . ثم وصل إلى القاهرة عمه الملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف . ولم يبق للملك المنصور معه غير الاسم . وكان يعمل هذا حفظا لدولة العزيز .

الرابع : الملك الأفضل نور الدين على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب .

وصل إلى القاهرة فحَلَفَت له الأمراء . وقصد دمشق ونزل عليها وحاصرها ، وكان بها الملك العادل ، فوصل الكامل محمد بعساكره إلى دمشق ، فرحل الملك الأفضل عنها ، فتبعه الملك العادل منزلة بمنزلة إلى أن التقيا العسكران بالسانح ، فانهزم عسكر الأفضل . وركب الملك العادل إلى أن وصل البركة [1] ، ونزل بها ثمانية أيام . ثم دخل القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ .

الخامس : الملك العادل أبو بكر بن أيوب بن شيركوه

دخل القاهرة وملك الديار المصرية ودمشق وأعمالها ، لثلاث عشرة ليلة

---

(١) التى بظاهر القاهرة وهى بركة الجب ، انظر المقريزى ، السلوك ، ١ - ١ ص ١٥١ .

بقيت من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ . ومات بخربة اللصوص [١] قرب دمشق فى سادس جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ ، وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة وشهورا . وكان ولده المعظم عيسى نائبا عنه بدمشق .

سنة ٦١٥ هـ كان ظهور التتر . وكانوا أولا مقيمين بصحراء متاخمة بلاد الصين يقال لها جين ماجين . فقويت شوكتهم واجتمعوا فى عالم لا يحصى ، وقصدوا بلاد الإسلام ، وأخذوا كل العراق .

السادس : الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبو بكر

استقل بملك الديار المصرية يوم وفاة والده سادس جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ . وفيها نزلت الأفرنج فى حياة الملك العادل إلى دمياط ، وأقاموا فى برّ الجيزة ثلاثة أشهر وأربعة أيام . وزحفوا براً وبحراً . وخرج الملك الكامل لقتالهم ، ونزل بر دمياط مقابلهم . وكان بحر النيل بين الفريقين . واشتد زحف الفرنج على دمياط ومحاصرتهم لها . فخرج الملك الكامل ومن معه ليلا من الخيم ورحل إلى أشموم . وعند الصبح دخل الفرنج خيم المسلمين ، واستولوا عليه ، وأحاطوا بدمياط . ولمّا طالت مدة الحصار ، وعدمت الميرة ، ووقع الوباء ، زحف الفرنج عليها فملكوها وأسروا من وجدوه بها ، وذلك يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان سنة ٦١٨ هـ . وأقاموا يحاصرونها ستة عشر شهرا واثنى عشر يوما . ولما ملك الفرنج دمياط تأخر السلطان إلى جوجر [٢] ، ونزل هناك ، وبنى

(١) وهى واقعة بين دمشق وبيسان .

(٢) بمركز سمنود من مديرية الغربية ، وهى واقعة على الشاطىء الغربى لفرع دمياط ، والنسبة إليها « جوجرى » .

بلدا وسماها المنصورة . وخرجت الفرنج ونازلوا السلطان عليها ، وبينهم وبينه بحر أشموم ، فقطع عليهم الملك الكامل بحور النيل ، فأحاطت بهم من كل ناحية وغرّقتهُم . وأرادوا الهرب إلى دمياط ولم يقدروا من العسكر . وطلبوا الأمان فأمنهم السلطان ، ونزلوا عن دمياط ، وتقرر بينهم الصلح ثمان سنين . وأقامت الفرنج بدمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما . وفى سنة ٦٢٤ هـ توفى الملك المعظم عيسى . وفى سنة ٦٢٥ هـ وصل الانبرور (١) إلى عكا مع جميع الفرنج وتسلم القدس بالصلح ، وبها [وهب] الملك الأشرف دمشق هبة من الملك الكامل .

السابع : الملك العادل أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل

تولى المملكة يوم وفاة والده نهار الأربعاء لتسع بقين من رجب سنة ٦٣٥ هـ . وقبض عليه واعتقله شبل الدولة كافور وشمس الخواص مسرور والصفى جوهر النوبى خُدّام أبيه والحلقة ، وذلك بظاهر بلبيس فى يوم الجمعة تاسع شوال سنة ٦٣٦ هـ . وانفذوا إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فحضر وتسلّم الملك ودخل القاهرة واعتقل أخاه . ثم رسم بتجهيزه إلى الكرك ليعتقله هناك ، فأبى ذلك ، فأرسل إليه محسن الخادم وصحبته عشرة من المماليك ، فقتلوه خنقا ، وأُخرج ودُفن .

الثامن : الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد

وتسلم المُلك يوم الجمعة ثالث وعشرين شوال سنة ٦٣٦ هـ . وفى ليلة الخميس ثامن عشر شعبان سنة ٦٤٧ هـ بالمنصورة ، وكان الفرنسيس (٢)

---

(١) الامبراطور فردريك الثانى .

(٢) وهو الملك لويس التاسع ، ملك فرنسا .

بدمياط ، فإنه نزل عليها بعساكره ، ونزل ببر الجيزة يوم الجمعة حادى وعشرين صفر ، وملك دمياط يوم الأحد بعد بيومين ، وأقام بها إلى أن مات الملك الصالح . وفى يوم وفاته خرج الفرنسيس بعساكره من دمياط ، ونزل قبالة المنصورة وأقام بها .

التاسع : الأمير فخر الدين بن الشيخ

أقامه الملك الصالح قبل وفاته اتابك العسكر ، وأوصى بالمُلك لولده الملك المعظم . فلم يزل يدبّر العسكر إلى أن قتله الفرنج يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ . وأقام خمسة وسبعين يوما . وذلك أن الفرنج عدّوا من مخاضة بحر أشموم ، وطلعوا إلى جديله ، وكانت عدتهم ألفاً وأربعمائة فارس ، ومعهم أخو الفرنسيس ، وتفرقوا فى المنزلة ، فقتلوا بأجمعهم ، وحملت رؤوسهم إلى القاهرة . ونصبت على باب زويلة . وبقى الملك بلا مُدبر ثلاثة عشر يوما .

العاشر : الملك المعظم غياث الدين ترنشاه بن الملك الصالح أيوب

كان أول ملكه بالديار المصرية يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ . وفى يوم الأربعاء ثالث المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، رجع الفرنسيس من قبالة المنصورة طالبا دمياط ، فتبعه عسكر المسلمين ، وأخذوا جماعة من أكابر مملكته أسرى . وقتل من الفرنج نيف عن ثلثين ألفا ، وأخذوا أموالهم . ثم قتل الملك المعظم ترنشاه ، قتلته المماليك وقطعّوه وأحرقوه بالنار ، وغرقوه فى بحر المنصورة ، يوم الثلاثاء سلخ المحرم سنة ٦٤٨ هـ .

الحادى عشر : شجر الدر المعروفة بأم خليل الصالحية

وهو أنه حلفت لها المماليك البحرية والأمراء والحلقة . وتولت الملك .

وتولى الاتابكية الأمير عز الدين أيبك التركمانى ، يوم الثلاثاء سلخ المحرم سنة ٦٤٨ هـ . ووقع الصلح من الأمراء والمماليك ، وبين فرنسيس ، وتسلّم الإسلام دمياط يوم الجمعة ، وأطلق الفرنسيس . وكانت مدة إقامته بدمياط والمنصورة يوما . ثم خلعت شجر الدر نفسها من المملكة ، وسلّمت ذلك للأمير عز الدين أيبك التركمانى ، يوم السبت تاسع وعشرين ربيع الآخرة . وأقامت فى الملك سبعة وثمانين يوما [١] .

الثانى عشر : الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالحى

استقر ملكا بالديار المصرية ، وتزوج شجر الدر يوم السبت تاسع وعشرين ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ . وكان قد جعل الاسم للملك الأشرف بن الملك المسعود ، وكان عمره ست سنين . ثم قتل الملك المعز هذا بحمام قلعة الجبل ، قتلته أم خليل زوجته ، ومعها من الخُدّام نصر العزيزى ومحسن الجوجرى ، يوم الأربعاء خامس وعشرين ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ . وقتلت عقيب ذلك أم خليل ضربا بالقباقيب ، ورُمِيَت من القلعة إلى بر السور ، وسُمر تلك الخدام تحت القلعة . وتولى الوزارة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب . ثم عمل الفائزى [٢] على الوزارة وبذل فيها استخراج مائة كيس من الرعية [٣] .

---

(١) جاء فى هامش الصفحة ما يلى :

« **حاشية** : ورد [فى] تاريخ الشمس ابن كبر أن بعد ملك شجر الدر تملك الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المسعود صلاح الدين اتسز بن الملك العادل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب يوم الخميس عاشر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ . وهو آخر من ولى الديار المصرية من بنى أيوب . ومدتهم نيفّ وثمانون سنة » .

(٢) جاء فى حاشية الأصل ما يلى :

« وهو أول ملوك الترك : الذى هو الملك المعز أيبك » .

(٣) الأسعد هبة الله الفائزى ، شرف الدين ، كان نصرانيا وأسلم ، فلما تولى الوزارة أحدث =

الثالث عشر : الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز أيبك

اتفقت الأمراء وسلّمت له المُلك يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ . ومُسك الوزير شرف الدين الفائزى ، ونُهبت داره ، وأخذ جميع ما وجد له ، وقتل خنقا بعد الضرب الشديد والتشويه ، ورمى فى نخ حلفا . وتولى بعده الوزارة الصاحب تاج الدين بن عبد الوهاب بن بنت القاضى الأعز . وأظهر العدل والانصاف وكف الظلم .

وفى السنة المذكورة نزل هولاكوه على بغداد بجميع عساكره ، وقوى التتار على البغداديين ، وفتحوا بغداد فى العشرين من المحرم من السنة المذكورة ، وقتلوا أهلها ونهبوهم سبعة أيام ، وأخذوا منها أموالا لا تحصى . وقبض هولاكوه على الخليفة ، وأمر أن يُداس ويُرفس إلى أن يموت . ففعل به ذلك .

وأما الملك المنصور فإنه كان كثير اللعب ، وليس له التفات إلى تدبير المملكة . وكانت الوالدة [هى] التى تدبر الملك تدبير النساء ، فرأى الأمير سيف الدين قطز أن الأمور تؤول إلى الفساد . وكان مملوك والده ، فعمد على طلب المُلك واتفق أن الأمراء خوشداشيته خرجوا إلى الصيد ، فخلا له الجو وقبض على المنصور نور الدين على وعلى أخيه قاقان فى العشر الأوسط من ذى القعدة سنة ٦٥٧ هـ ، واعتقلهما فى برج قلعة الجبل ، ثم أرسلهما إلى دمياط ، واعتقلهما فى دار عمّرها لهم فى برج السلسلة فى وسط البحر . وكانت مدة مملكته سنتين وثمانية شهور وثلاثة أيام .

* * *

= مكوسا كثيرة بمصر وفتح أبواب المظالم . ابن إياس ، بدائع الزهور ، ١-١ ، ص ٣٠١ ، وهو أول قبطى ولى الوزارة فى مصر الإسلامية ، المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ . والسلوك ، ١-٢ ، ص ٣٧٠ .

الملك المُظفر سيف الدين قُطز

مملوك الملك المعز . ملك الديار المصرية فى العشر الأوسط من ذى القعدة سنة ٦٥٧ هـ . وفى سنة ٦٥٨ هـ ، نزل هولاكوه على حلب وفتحها فى شهر المحرم . وكان الملك الناصر بدمشق وهو آخر بنى أيوب ، وقبض كتبغا [١] النائب عن التتار على الملك الناصر وعلى ولدى الملك العزيز ، واحضر أخاه من قلعة صرخد وهو الظاهر ، وسيّرهم جميعا [٢] إلى هولاكوه . وفى شهر رمضان ، تقدم الملك المظفر بنفسه ، وحملت معه العساكر ووقعت الكسرة على التتار ، وذلك فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم ، وانهزم التتار من دمشق ، ودخل إليها الملك المظفر بعساكره . وأرسل النواب إلى حمص وحلب وسائر البلاد إلى الفرات . وأعاد صاحب حماه إلى بلده . ولما فرغ من ترتيب أحوال الشام عزم على المسير إلى الديار المصرية . ولما وصل إلى منزلة القصير ، وانفرد عن المواكب ليتصيد ، فتبعه الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى وأنص الأصبهانى . وتقدم إليه أنص على أنه يسأله زيادة وإصلاحا للبندقدارى . ولما أجابه إلى ملتمسه نزل وقبّل الأرض ثم مسك يده على أنه يُقبلّها ، فضبطها ضبطا شديدا وعلاه الأمير ركن الدين البندقدارى بسيفه ، ثم لما اجتمعوا على من يملك ، وعرضوا ذلك الأمر على الأمراء استعفى كل منهم ، واستقال وأحجم عن الموافقة ، وسماع المقال . فعند ذلك ، تقدم الأمير فارس الدين اقطاى المستعرب المعروف بالأتابك ، وسألهم قائلا : من هو قتل المظفر بسيفه ؟ قالوا : الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . فقال : هو أحق بالملك وأوْلى . فوافقه الأمراء على ذلك ، وأجلسوا المشار إليه .

---

(١) كتبغا نوين نائب هولاكو وصهره . ونوين من ألقاب كفال الممالك بالممالك القانية ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٣٣ .

(٢) فى الأصل : جميعهم .

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البُندقدارى الصالحى النجمى

وكان جلوسه فى دست السلطنة بمنزلة القصير فى الخامس عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة . ووفاته فى السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦ هـ . فكانت مدة سلطنته ثمانى عشرة سنة وشهرين . وهو تركى الجنس . وكان أولا مملوكا للأمير علاء الدين أيدكين البُندقدار الصالحى ، أحد مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكان الملك الصالح قد نقِمَ عليه أمرا ما ، فأمسكه واعتقله وارتجع مماليكه وأضافهم إلى المماليك السلطانية ، ومنهم الأمير ركن الدين بيبرس المشار إليه . ولهذا يعرف بالبُندقدارى . ولمّا انتقل وصار فى جملة المماليك السلطانية ، نُزّل فى جُملة البحرية . وهو الذى وثب على الملك المعظم تورنشاه بن الملك الصالح وقتله . وكان ذا دهاء وحيل وعزيمة وحزامة عظيمة . ولقد عاش أستاذه البندقدار إلى أن تسلطن ، وصار من جملة أمراء دولته المنتظمين فى خدمه وخدمته . وكان يبرُّه ويراعيه ويعوده وينزل إليه . واتفق للبندقدار مرض ، فعاده ذات يوم وهو فى دست سلطنته وتمكن عظمته . وكان بالدار التى هو ساكن فيها سدرة [1] ، وكان إذا ضرب الملك وهو عنده صغير يُعلّقه فى تلك الشجرة .

ولما زاره ذلك اليوم ، ومعه أكابر الأمراء ووجوه العساكر ، نظر إليها السلطان وقال : أتعرف هذه السدرة ؟ فقال : ياخوندا أعرفها ولولاها ما جاء هذا . يعنى أنه لولا التأدِيب والتخريج ما ارتقى إلى هذه المرتبة ، واستفاد الآداب والتجربة . ولما خرج السلطان من عنده بادر الأمير المشار إليه ، وقطع السدرة من أصلها خوفا أن يبصرها السلطان دفعة أخرى ويتذكرها . ومن حزم السلطان

---

(١) شجرة النبق . وجمعها سدرات وسِدَر .

الملك الظاهر كونه بادر تورنشاه وفجئه قبل أن يفجأه . ومن ذلك الوقت تمكنت مهابته ، وانتشرت سمعته .

ولما استقر له الأمر ، أبطل عن الرعية ما كانوا مطلوبين به من التصقيع (١) ، والتقويم (٢) ، والخُمس ، والزكاة المُعجلة ، والجوالى (٣) المعجلة ، والتبرع ، والراجّل ، والدينار (٤) ، وغير ذلك . فكانت جملته ستمائة ألف دينار . وكتبت بذلك مسامحات قرئت على المنابر . ثم نصب دار العدل ، وأقام فيها الأمير فارس الدين أقطاى المُستعرب ، يُنصف بين الناس . ولم ترفع له مظلمة إلا كشفها .

ومما جرى ، أن أحد الأمراء الذين فى اعتقاله ، كان قد أودع بعض الفقهاء مالا كثيرا فى صندوق . وكان الفقيه المذكور فى مدرسة ، وعنده صبى يقرأ عليه . فأغفله ليلة ، وسرق الصندوق . فأُمسك وهو خارج به ، وأحضر إلى والى القاهرة ، فطالع السلطان بأمره . واستحضر الفقيه والصبى والصندوق . وسأل الفقيه عن اسم صاحبه ، فذكره له . فأعاده عليه ، وأوصاه بحفظه لصاحبه (٥) .

---

(١) وهو إحصاء البيوت والعقارات من أجل فرض ضريبة وهى أخذ أجرة شهرين فى كل سنة عليها ، وقد أخذت فى زمن الملك المعز أيبك التركمانى ، انظر المقريزى ، سلوك ، ١-٢ ، ص ٣٨٤ و ٤٣٧ .

(٢) تقدير قيمة كل من بيت من البيوت المحصاة لأجل فرض ضريبة ، فيؤخذ عن كل دينار درهم . أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ٢٤٩ .

(٣) جمع جالية ، واللفظ مطلق على أهل الذمة وتستخرج منهم ، وهى الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة . صبح الأعشى ٤٦٢/٣ .

(٤) وهى ضريبة فرضها قطز وبمقتضاها كان يؤخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينار . انظر المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٤٣٧ .

(٥) ورده هذا الخبر فى ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٧٧ - ٧٨ .

وبلغه أن للصاحب شرف الدين الفائزى مالا مودعا عند الرشيد جمال الدين الحسين بن بصاصة وغيره ، فأمر بإحضارهم ، فحضروا ، وأُحضر المال . فقال بعض الحاضرين : يُطلب منهم فائدة هذا المال فى طول هذه المدة . فأخذ السلطان شيئا من وسط الذهب ، وأمر بقراءته ، فقرئت تواريخه ، وأسماء الملوك التى فى السكك . ولم يوجد عليها اسم الملك المنصور ولا الملك المظفر . فقال : هذا مال ما بيع فيه ولا أشترى ، ولو تُصّرف فيه لكانت فيه هذه النقود القريبة العهود . وسأله الرشيد براءة شرعية من المال . فأجابه إلى ذلك . وأحضر القاضى والشهود ، وفعل له ما أبرأ ساحته وأحسن عاقبته (١) . وهذه من مناقبه الدالة على أخذه بالعدل فى أحكامه .

وأحسن إلى دور الملوك الذين كانوا قد وصلوا من الشام فى الأيام المظفرية جافلين ، وتفقدهم وتعهدهم ، وأطلق لهم النفقات والإقامات . وهم الدار الركنية ، والدار العادلية ، والأدر القطبية ، والدار الأشرفية ، والدار المسعودية .

ولقد كان فى حال إمرته ، توفى له مملوك ، ودفن قريبا من تربة الشيخ أبى السعود (٢) رحمه الله تعالى ، ورأى احتياج الفقراء إلى الارتفاق بالماء ، فعلم هناك بئرا . ولما شرع فى حفرها ، اتفق قتل الفارس اقطاى وتوجه السلطان إلى الشام . فحضر شخص (٣) جندى ، وكمّل عمارة البئر . وحصل بين الجندى والفقراء كلام ، وانزعجت خواطرهم منه . واتصل الخبر بالسلطان ، فتذكر القضية ، وطلب الغريم ، وطلب الجندى الشرع . وكتب قصة بدار العدل

---

(١) راجع هذا الخبر فى ابن عبد الظاهر ، المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٢) لعله الشيخ أبو السعود بن أبى العشائر الواسطى . وكان من العارفين بالشريعة والحقيقة . مات بالقاهرة سنة ٦٤٤ هـ ودفن بسفح المقطم . وكان الملك الظاهر يُعظمه . وينزل إليه ويحترمه ويقعد بين يديه كالعبد المملوك . انظر ترجمته فى المناوى ، الكواكب الدرية ، الورقة ٥١ ب (مخطوطة برلين رقم ٣٠٨) .

(٣) جاء اسمه فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٨٤ ، على أنه : جمال الدين محمود ، أحد الأجناد .

كتبت بالإشارة الأتابكية إلى السلطان مضمونها طلب الخصم الشرع . فرسم للاتابك بأن يأخذ قاضى القضاة ، ويحضر إلى دار العدل ، والأربع الأئمة . وخرج السلطان ، وجلس بدار العدل ، فأمر ونهى إلى أن حضر الخصم . فقال الأتابك للسلطان : مولانا يقوم معه إلى الشرع . فقام وحَلّ سيفه من وسطه ، وأعطاه لبعض السلحدارية ، وتساوى مع خصمه بين يدى قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . ولما وقف السلطان مع غريمه أمرهما القاضى بالجلوس معا ، فجلسا . وشرح السلطان الحال ، وتكلم الخصم ، وحصل التجاذب فى المحاكمة . فثبت الحق للسلطان ، وحكم الأئمة بأن البئر له ، وأن بعض البناء والعدة للخصم . فالتزم له السلطان بقيمة ما ثبت له . ووقف [١] ذلك لله تعالى ، ورسم أن تعين له أوقاف تقوم بكلفته وخلع على الأتابك نائب دار العدل ومتوليها ، وعلى قاضى القضاة ، وعلى غلامه الذى حضر بسبب المحاكمة ، وعلى الخصم . وتسامع الناس بذلك ، فصار الأمير ينصف المأمور ، والشريف ينصف المشروف . وخاف كل أحد من العدوان ، وصار التناصف ظاهر الإعلان . وهذه سياسة حسنة ، ومكرمة جميلة يجب على الملوك التخلق بمثلها والاقتداء بفعلها .

وفى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وصل السيد أبو العباس أحمد ، فتلقاه السلطان بنفسه ، وأنزله فى القلعة فى المكان الذى كان الإمام المستنصر بالله نازلا فيه . وكان وصوله فى التاسع من رجب ، ووصل صُحبته من عرب خفاجة قريب خمسين فارسا . وشق المدينة لابسا شعار بنى العباس ، وطلع القلعة راكبا . وفى ثالث عشر رجب ، أحضر السلطان الفقهاء والأئمة والعلماء والأمراء والصوفية وجمع الناس بقاعة العمد . وحضر السلطان والخليفة . وتأدب

---

(١) جاءت « أوقف » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٨٠ .

السلطان معه فى الجلوس ، فلم يفرش له طراحة [١] ، ولاحطّ له كرسى [٢] ولا منبر [٣] . وبايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسول الله ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها [٤] . ثم قلد الخليفة السلطان البلاد الإسلامية وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . ثم بايعه الناس على اختلاف طبقاتهم . وكتب إلى البلاد بأخذ البيعة له ، وأن يخطب باسمه على المنابر ، وتنقش السكة باسمه . وفى يوم الجمعة سابع عشر رجب ، خطب الخليفة بالناس فى جامع القلعة ، ونثرت جمل من الذهب والفضة . وفى يوم الاثنين رابع شعبان ، ركب السلطان إلى البستان الكبير ، وقد ضربت به الخيام . وحملت الخلع صُحبة الأمير مظهر الدين وشاح الخفاجى ، وخادم الخليفة . ولبس السلطان عمامة سوداء مذهبة ، ودُرّاعة [٥] بنفسجية وطوقا . وتقلد سيفين ، وحملت خلفه عدة سيوف ، ولواءان وسهمان كبيران [٦] وترس ، وغير ذلك مما جرت به العادة . وقُدم له فرس أشهب برقبة سوداء وكنبوش [٧] أسود فركبه . وخلع على الأمراء وعلى قاضى القضاة ، وعلى الصاحب بهاء الدين ، وعلى صاحب ديوان الإنشاء فخر الدين بن لقمان ، فإنه أنشأ التقليد الشريف [٨] ، وطلع على المنبر قد

---

(١) الطراحة وجمعها طراريح ، وهى المرتبة التى يفترشها السلطان .

(٢) وهو كرسى من خشب مغشى بالحرير لجلوس السلطان . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٤/٦ - ٧ .

(٣) وجاءت « مسند » فى المقريزى ، المرجع السابق ، ١-٢ ، ص ٤٤٩ ؛ ولكنها جاءت « منبر » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٠٠ .

(٤) وهذه الجملة منقولة بحذافيرها فى المقريزى ، المرجع السابق ، ١-٢ ، ص ٤٥٠ .

(٥) وهى جبة مس الصوف مشقوقة المقدم .

(٦) فى الأصل « كبارا » .

(٧) وهى هنا البردعة التى توضع تحت سرج الفرس .

(٨) أورد ابن عبد الطاهر فى الروض نص هذا التقليد ، ص ١٠٢ ، ١١٠ ؛ كما أورده المقريزى ، السلوك : ١-٢ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٧ .

جُلّل بالأطلس الأصفر . وقرأه على الناس كافة . ولما ركب السلطان من البستان المذكور شق المدينة بعد أن زُينّت ، وبُسط له أكثر الطريق ثيابا فاخرة . ثم إن السلطان استخدم للخليفة ، فكتب للأمير سابق الدين بُوزبا [١] أتابك العسكر بألف فارس ، والطواشى بهاء الدين صندل الشرابى بخمسمائة فارس ، والأمير ناصر الدين بن صيرم الخزندار بمائتى فارس ، والأمير نجم الدين [٢] أستاذ الدار بخمسمائة فارس ، وسيف الدين بلبان الشمسى الدوادار بخمسمائة فارس . وأمّر جماعة من العربان بالطبلخانات . واشترى له مائة مملوك جمدارية وسلحدارية . وأعطى كلا منهم ثلاثة أرؤس خيلا وجملا لعُدّته . واستخدم له من يحتاج إليه من أصحاب الدواوين وكتاب الإنشاء والأئمة والغلمان والحكماء والجراحية [٣] . وكمّل له البيوت والخيول والجنائب [٤] والأسلحة وغيرها .

وفى شهر شعبان سنة تسع وخمسين وستمائة ، وصل الملك الصالح إسماعيل وعلاء الدين على ابن صاحب الموصل بأولاده وأهله ، وبعده أخوه الملك المجاهد اسحق صاحب الجزيرة . وهما ولدا الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ . وكان وصولهما هربا من التتار . وكان لهما أخ يسمى الملك المظفر صاحب سنجار معتقلا بقلعة من قلاع حلب ، كان العزيزية أخذوه وسجنوه بها ، فأمر السلطان بإكرامهما ، ورتب لهما الإقامات منذ وصلا إلى دمشق وإلى أن دخلا القاهرة المحروسة . ولما وصلا تلقاهما بنفسه ، وأكرمهما ووصلهما بالافتقاد والخيول

---

(١) انظر المقريزى ، سلوك ، ١-٢ ، ص ٤٥٨ ، والحاشية (١) . وقد أثبت ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١١٠ ، هذا الاسم .

(٢) نجم الدين جعفر كما جاء فى المقريزى ، المرجع السابق ، والأمير الشريف نجم الدين كما جاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١١٠ .

(٣) جمع جرائحى ، وهو الطبيب الذى يعالج الجراح .

(٤) جمع جنب وهى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة إليها .

والحوائص (١) لهما ولمن معهما . وأرسل أطلق لهما أخاهما المذكور ، وأحضره إليهما بالديار المصرية . وعَيّن جماعة من البحرية برسم خدمتهم ، وتصريف مهماتهم . وكتبت تقاليدهم بالبلاد التى فُوضت إلى السلطان من مولانا الخليفة وهى : الموصل وبلادها وقلاعها ، ونصيبين (٢) ورساتيقها (٣) وولاياتها ، والقلاع العِماديّة (٤) وغيرها للملك الصالح . وكتبت بلاد الجزيرة وأعمالها للملك المجاهد سيف الدين اسحق . وكتب للملك المظفر سنجار وأعمالها ، فإنها كانت بيده فى حياة والده .

وكتب لعلاء المُلك ، ولد الملك الصالح ، تقليدٌ بقلعة الهيثم . وأرسل إليهم أحمال الكوسات (٥) والسّناجق (٦) وعزم على الشام لتوصيل الخليفة والملوك المذكورين إلى بلادهم . وحضر الخليفة إلى السلطان ليلاً وألبسه الفُتّوة (٧) بحضور جماعة يُعتبر حضورهم . ورحلا مُتَوجهين إلى الشام ، وودعهما السلطان من دمشق . وجَرّد جماعة من العسكر صُحبة الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير شمس الدين سنقر الرومى ، وأوصاهما بالتوجه إلى جهة البلاد الحلبية والفرات ، وأنه متى ورد إليهما كتاب الخليفة يستدعيهما إلى العراق ،

---

(١) جمع حياصة . وهى الأحْزِمة المملوءة بالذهب .

(٢) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على الطريق من الموصل إلى الشام . ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٩٢/٨ .

(٣) جمع رستاق . وهو لفظ فارسى معناه القرية أو محلة العسكر ، واشتقت منها الكلمة العربية « الرزداق » وجمعها « الرزداقات أو الرزاديق » ، انظر محيط المحيط مادة رستق .

(٤) التى بناها عماد الدين زنكى عام ٥٣٧ هـ ، ياقوت ، المرجع السابق ، ٢١٤/٥ .

(٥) جمع كوسة . وهى من رسوم السلطان وآلاته ، ومنحها يدل على منح رتبة أمير طبلخانة . انظر ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ .

(٦) جمع سنجق . وهو لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، والمراد به هنا الراية التى تربط بالرمح . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٨/٤ ، ٤٥٦/٥ .

(٧) وهى سراويل كانوا يلبسونها ويسمونها « سراويل الفتوة » وذلك عند الخروج لرمى البندق ، وكانت لا تمنح إلا لفئة معينة من الناس بينهم روابط وثيقة وبعد أن يكونوا « قد شربوا كأس الفتوة ويلبسون سراويلها » راجع ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٨٦ ، والمقريزى ، الخطط ، ج ٢ / ٣١ – ٣٢ .

يتوجها إليه هما أو من يطلبه منهما . فلما توجّها ؛ أمّا أولاد صاحب الموصل ، فانفصلوا منه ، وتوجه كلٌّ منهم إلى مملكته . توجه الملك الصالح وولده علاء الدين إلى الموصل ، فحضر التتار إليها وحاصروها تسعة أشهر وأخذوها وقتلوا المذكور وولده ، وعلّقوهما على بابها . وأما أخواه المجاهد والمظفر ، فإنهما رجعا إلى الشام . وأما الخليفة ، فإنه توجه نحو العراق . ولما قرب بغداد صادفه التتار ، فقتلوه .

وركب السلطان للعب الكرة بميدان دمشق . واجتمع الملوك فى خدمته ، وعدّتهم خمسة عشر ملكا . ولم يتفق هذا لغيره . وجدد الإقطاعات ، وكتب المناشير ، ووصل الأرزاق ، ونصب دار العدل بمدينة دمشق ، وأحضر أمراء العربان ، وسلّم إليهم خفر البلاد وحفظها إلى حدود العراق . وفوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى الحاج . وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا .

ولما جرّد السلطان الأمير سيف الدين الرشيدى ومن معه إلى حلب والفرات عندما سَفّر الخليفة ، رَدَفهما بصاحب حَماه ، وصاحب حمص . وتقدم إليهم بالإغارة على بلاد انطاكية ، وكان البرنس صاحبها متخوفا من ذلك . فأغارت العساكر عليها ، وأخذت ميناءها ، وأحرقت المراكب التى فيها ، وحاصرت السُّوَيْديّة وأخذتها وقتلت وأسرت وغنمت ونهبت .

ولما تحقق الفرنج قدوم السلطان ، بعثوا الرسل بالإقامة والهناء بالسلامة . وتقرّر الصلح مع الفرنج على ما كان الأمر عليه إلى آخر الأيام الناصرية ، وإطلاق الأسرى من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت الهدنة لصاحب يافا ومتملك بيروت على حكم الأيام الناصرية . وأمنت السبل ، وكثر الجلب ، وشرع السلطان فى جمع أسارى الفرنج . وسيّرهم إلى مدينة نابلس حفظا

للعهد [١] . وكاسر الفرنج فى إرسال أسرى المسلمين ، فأمر بإرسالهم إلى دمشق ، واستعمالهم فى العمائر .

وبلغ السلطان أن جماعة من عرب زبيد [٢] يخالطون الفرنج ، ويُدلونهم على عورات المسلمين . فجرد إليهم الأمير جمال الدين المحمدى وصحبته جماعة . فأغاروا عليهم ، واستاقوا ، وعادوا سالمين . ورجع السلطان إلى الديار المصرية فى سابع عشر ذى الحجة سنة ٦٥٩ هـ .

وفى سنة ٦٦٠ هـ ، جهز السلطان الأمير بدر الدين الأيدمرى وصحبته جماعة . فسار ، ولم يدر أحد إلى أين يتوجه [٣] . فسار إلى الشوبك وتسلمها ، واستخدم فيها النقباء والأجناد ، وأفرد لخاص القلعة ما كان فى الأيام الصالحية .

ثم إن السلطان عرض العساكر بنفسه ، وحلف الناس لولى عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركه خان . وسيّر نسخ الأيمان إلى القلاع والبلاد ، فحلف الناس جميعا .

وفى هذه السنة ، وردت جماعة من مماليك الخليفة البغاددة الذين كانوا تأخروا فى العراق بعد قتل الخليفة ، ومقدمّهم الأمير شمس الدين سلار ، فأعطاه السلطان خمسين فارسا بالشام ، ثم غيرّ له باقطاع فى الديار المصرية .

---

(١) انظر ما جاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١١٨ .

(٢) اسم قبيلة كانت مساكنها حول دمشق ، وكانت مساكنهم قرب الرحبة بجوار منازل آل فضل ، انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٣) وفى هذا يقول بيبرس المنصورى فى زبدة الفكرة ، مخطوطة المتحف البريطانى ، الورقة ٥٤ ، « ولم يعلم أحد جهة مقصده لأن الملك الظاهر كان حازما فى أمره ، كاتما لِسره ، مقتديا بقول القائل :

إذا ضَاقَ صَدرُ المرءِ عن سرِّ نفسه   فصدر الذى يُستودع السر أضيقُ

وفى هذه السنة ، وصل الأمير شرف الدين الجاكى والشريف عماد الدين الهاشمى من عند السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب الروم ، وصحبتهم الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوج [١] رسلان أمير حاجب ، ومعهما كتاب يخبر بأنه نزل للسلطان عن نصف بلاده ، وسير دروجا [٢] فيها علائم [٣] بما يُقطعُ منها لمن يختاره السلطان ، ويؤّمرهُ . فأكرم السلطان رُسُلَهُ ، وجهز جيشا لنجدته . وأمر بكتب المناشير عنهُ قرين مناشير صاحب الروم . وجهّز الأمير ناصر الدين أعلمش السلحدار لتقدمة العساكر ، وعيّن له ثلاثمائة فارس ، وأقطعه الروم . ووصلت تذكرة على يد رسول المذكور ، نسختها بالعربية :

« فى الوقت والحال ، حصل من جهة حضرة جلال السلطنة ، أجلها الله ، للجناب المحروس ناصر الدين سيد الأمراء والحجاب ، وسلم إليه المناشير ، ورسم له بالسنحق والمنديل واليد كجارى العادة . وسُيّر إلى خدمة الجناب العالى المولوى الملكى الظاهرى ، خلد الله سلطانه ، ممثلا مراسمه ، وواقفا عندما يقرره » . وتضمنت التذكرة المذكورة ، الأيمان والعهود ، وتاريخها جمادى الآخرة سنة ٦٦٠ هـ [٤] . وكتب السلطان للرسول الواصل بهذا الكتاب ، منشورا بثلاثمائة طواشي [٥] ، وأقطعه آمد [٦] وأعمالها .

---

(١) جاءت « كوخ » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٢٥ ، و « كوح » فى المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٤٦٩ .

(٢) جمع درج ، وهو نوع من الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ١٣٨/١ .

(٣) جمع علامة ، وهى ما يكتبه السلطان بخطه بصورة اصطلاحية خاصة .

(٤) انظر نسخة هذه التذكرة فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٥) انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٢٧ ، والحاشية ٣ .

(٦) أعظم مدن ديار بكر ، تحيط بها دجلة كالهلال ، ياقوت ١٩٢/١ .

وفى هذه السنة ، وصل الأمير عماد الدين بن صاحب صه
من جهة أخيه بهدية .

وفى هذه السنة ، أرسل التتار إلى الملك المنصور صاحب
صحبة قُصّاد ، فأرسله وأرسلهم إلى الأبواب العالية السلطانية .

وفيها أوقع الأمير عماد الدين [١] أمير جاندار بعربان الصعيد
وعصوا .

وفى هذه السنة ، وصل الأمير فارس الدين أقوش المسعودى
توجه رسولا إلى الأشكرى صحبة الرشيد الكحّال بطرك الملة
الأشكرى التمس إرساله إليه . ولما عاد البطرك المذكور أحضر هدية
جملتها مُصوغ فضة وذهب وقماش . فردّ السلطان ذلك عليه .
الأشكرى أبقى الجامع الذى بمدينة القسطنطينية ليكون ثوابه
فأعجبه ذلك ، وأمر لوقته بتجهيز الحصر العبدانى [٢] ، والقناديل
والستور المرقومة ، والمباخر ، والسجادات ، والمسك ، وماء الورد
والعود . وهذا المسجد بنى فى سنة ٥٨ للهجرة الإسلامية على ما وقع ا
مع الروم . وقيل إن بانيه مسلمة بن عبد الملك فى أيام أخيه الوليد
الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أراد تجديد عمارة هذا ا
الخطبة به ، فلم توافقه الروم ولا مكنوه . والذى عُمّر فى أيام هذا الملـ
المدة : فمن ذلك عمارة الحرم الشريف النبوى ، وقبة الصخرة الشريفـ
بعض ضياع الخليل عليه السلام قد أجريت فى الإقطاعات فارتجعها و

---

(١) جاء اسمه « عز الدين » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٢٨ ؛ وجاء اسمه « عز
فى المقريزى ، سلوك ، ١-٢ ، ص ٤٧١ .

(٢) نسبة إلى مدينة عباذان المشهورة بصنع الحصر ، ياقوت ، ٣ /٥٩٧ .

وقفه ، وعوّض مقطعيها ، وحبّس القرية [المعروفة] بإذنا عليه بكتاب صحيح ، وأودع نسخته عند شيخ المقام ، ونسخه منه فى مودع الحكم بدمشق . وعمّر المدرسة التى بين القصرين [١] وكتاب السبيل المجاور لها . وكان ابتداء العمارة فيهما فى الثامن من ربيع الآخرة ، ونجازهما فى أواخر شعبان . وكان مشد عمارتها الأمير سيف الدين [٢] يغمور ، وأمره أن لا يستعمل أحدا إلا بأجرته .

وجدد عمارة قلعة الجزيرة التى كان الملك الصالح أنشأها وهدمها الملك المعز ، وفرّق أبراجها على الأمراء . وأنشأ قناطر على جسر شبرامنت بالجيزية ، وهو جسر عظيم يتراكم الأمواه عليه ، وكان كثيرا ما ينقطع ، فحصل بهذه القناطر النفع . وأمر بعمارة مشهد بعين جالوت ، موضع المصاف مع التتار ، وسمّاه مشهد النصر . واهتم بعمارة أسوار ثغر الاسكندرية وخندقها . وبنى لثغر رشيد مرقبا لكشف البحر المالح وما يتخلله من مراكب العدو . وأمر أن يرتب فيه ديادبة لذلك . وكان قد انهدم من منارة الاسكندرية جانب ، فبناه وشيّده . وأمر بأن يُضيق فم بحر دمياط ، فضيق بالقرابيص [٣] التى هدمت من سورها ، وصارت تمنع المراكب الفرنجية من الدخول . وبلغه أن فم بحر أشموم قد كاد يستدّ بما طرحه البحر عليه من الطين ، فتوجه السلطان بنفسه وصحبته العساكر ، وحفره ورتب فيه قلاون الألفى . وأمر بعمارة القلاع التى كان التتار استولوا عليها وخربوا أسوارها وهى : قلعة دمشق ، وقلعة الصلت [٤] ، وقلعة عجلون [٥] ،

---

(١) وهى المدرسة السعيدة ، انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٩٠ ، وجاء اسمها « المدرسة الظاهرية » انظر الزبدة ، المخطوطة ، الورقة ٦٣ .

(٢) جاء اسمه « جمال الدين » فى ابن عبد الظاهر ، نفس المرجع والصفحة .

(٣) الحجارة ، ومفردها قرباص ، ويبدو أن أصلها يونانى .

(٤) الصلت بليدة وقلعة من جند الأردن جنوبى عجلون فى جبل الغور الشرقى .

(٥) حصن مبنى على جبل عوف ، بناها أسامة بن منقذ فى سلطنة العادل أبى بكر الأيوبى ، وكان بها راهب اسمه عجلون فسميت باسمه . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ١٢/١٠٥ .

وقلعة صرخد [١] ، وقلعة الصبيبة ، وقلعة بصرى ، وقلعة بعلبك ، وقلعة شيزر [٢] وقلعة شميميس [٣] . وحمل إليها من الآلات والذخائر ما تحتاج إليه . وجرد إليها من المماليك والجند من يقيم بها .

وفى سنة ٦٦١ هـ ، وردت وفود من التتار إلى الخدمة السلطانية ، وكانوا زهاء ألف فارس . وأُمّرَ كبرائهم بالطبلخانات وهم : كرمون أغا ، وهو الذى فتح بلاد الترك كلها ، وامتغا أغا [٤] ، ونوكا أغا ، وجبراك أغا ، وقنان أغا ، وطيشور وناصُغيه ، ونبتو ، وصنجى ، وجوجلان ، واجقرقا ، وأرقرق ، وصلاغيه ، ومنكدمر ، وصُراغان أغا ، وأسلموا عندما أُمِّرُوا وطُهِّروا .

وكانت رسل الفرنج الذين بعكا قد وصلوا إليه ، فاستحضرهم يوم أخذ الملك المغيث ، وانفصلوا من غير رضى إلى عكا . ولما كان يوم السبت رابع جمادى الآخرة ، ركب السلطان ، وجرّد من كل عشرة فارسا واحدا ، وساق من منزلة الطور نصف الليل ، وأصبح فى الوادى الذى يقارب عكا ، وأمر الناس بلبس السلاح ، ولم يزل سائقا إلى أن طاف بها من جهة البر . وسيّر جماعة إلى برج كان قريبا منها فيه جماعة منهم ، فحاصروه ، وأخرج من كان فيه بالأمان . وأقام إلى المغرب والفرنج ينظرونه من أبواب المدينة وتل الفضول . ولما أصبح ، ركب وساق إليها ، وردم خنادق كانت حول تل الفضول ، معاثر فى الطريق ، وحرّق ما حول عكا من الأبراج والأسوار . وقطعت الناس الأشجار ، وأحرقوا الثمار . وقتل جماعة من كنودهم وفرسانهم ، وكشف عكا ، وعلم من

---

(١) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق . ياقوت ٣٤٩/٥ .

(٢) بالقرب من المعرة ، بينها وبين حماة يوم ، ياقوت ٣٢٤/٥ .

(٣) وهى إحدى بلادكورة حمص .

(٤) جاء اسمه « امطغية » فى المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٠١ ، وفى زبدة الفكرة ، المخطوطة ، الورقة رقم ٦١ .

أين يحصل الاستيلاء عليها . وثنى عنان فرسه راجعا ، إمهالا وإهمالا . وفى هذه السنة وصل إلى البيت المقدس ، وزار وطلع على قبة الصخرة من خارجها ، ورأى ما هو محتاج إلى العمارة . وكتب بإحضار مايُحتاج إليه من الشام . ونادى بأن أحداً لا ينزل فى زرع ، ولا يطعم منه فرسه .

وفى يوم الخميس ثالث عشر [١] جمادى الآخر سنة ٦٦١ هـ ، فتح الكرك وتسلّمها من أولاد الملك المغيث . ونزل أولاد المغيث وجماعة من أهلها بالمفاتيح ، وسألوا العفو ، فحلف لهم على ما طلبوه ، وأعطاهم حتى أرضاهم . وتسلّم الحصن ، ورتب أحواله ، وأعطى أولاد الملك المغيث جميع ما حواه الحصن من مال ، وقماش ، وأثاث . وخلع على الملك العزيز ولد المغيث ، وعلى الطواشى بهاء الدين صندل ، وشهاب الدين بن صعلوك أتابكه . واستناب الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى أستاذ الدار ، وأضاف له النظر على الشوبك [٢] . وعاد إلى القاهرة ، فدخلها فى سابع عشر رجب ، وزينت . وفى ذلك الوقت ، أمّر فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث بمائة فرس .

وفى سادس شوال سنة ٦٦١ هـ ، عدى الجيزة ، وتوجه إلى الاسكندرية ، وهو يتصيد . ونزل خارج المدينة . ونادى بأن لا ينزل فى الثغر جُندى ، ولا يقيم به . وحصل للرعية بذلك الرفق . ورسم برد مال السهميْن [٣] ، ووضع عن أهل الثغر الفائدة التى كانت تُستأدى منهم ، وهى رُبع دينار عن كل قنطار يُباع . وأعطى الأمراء عطاءً جزيلا من المال والقماش

---

(١) جاء فى ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٤١٩/٢ ، وفى المقريزى ، سلوك ، ١-٢ ، ص ٤٩١ ، « ثالث وعشرون » ، ولعل هذا أقرب إلى التاريخ الصحيح .

(٢) والجملة فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٦٤ ، جاءت على النحو التالى : « وأضاف إليه النظر على الشوبك وأعمالها » .

(٣) انظر المقريزى ، السلوك ، ٢-١ ، ص ٤٩٩ .

وغيره . وحضر شخصان من أهل الثغر : أحدهما يُقال له ابن البُورى ، والآخر المكرم بن الزيّات ، وأنهيا بأن بالثغر أموالا ضائعة ، وكَتَبا بها أوراقاً . فسدّ السلطان أبواب ظلمهما [١] ، وأنكر عليهما ، وأمر بإشهار ابن البورى ، فأُشهر . وتوجّه عائدا إلى مصر فى الحادى عشر من ذى القعدة .

وبلغه أن النسوان بالقاهرة ومصر قد لبسن عمائم كعمائم الرجال ، وتبهرجن ، وتظاهرن بزوال الحشمة ، فغار لله ، وأمر أن ينادى بأن امرأة [٢] لا تعمم ، ولا تتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام ، نهبت وينهب ما عليها من الكسوة .

وفى الحادى عشر من صفر من هذه السنة ، توفى الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المنصور بن شيركوه ، صاحب حمص . وورد كتاب الأمير جمال الدين النجيبى ، نائب السلطنة بالشام ، بتسليم نوابه ما كان فى يده من البلاد ، وأنه ولى ولاة من جهته على حرّان والرّقة .

وفيها أيضا تقررت الهدنة مع الفرنج حسب سؤالهم ، إلى أيام الحصاد ، وأن يُقوّوا البلاد من أموالهم .

وفى شعبان منها [٣] ، أمر بتكميل عمارة البئر التى أنشأها بالليونة غربى ثغر الاسكندرية ، فكُمِّلَتْ .

وفى شهر صفر اثنى وستين وستمائة ، غلت أسعار الغلة ، ووصلت إلى قريب مائة درهم نقرة الأردب ، فرسم السلطان بالتسعير ، طالبا الرفق . واشتد الحال ، وعُدِم الخبز . فأمر بالنداء باجتماع الفقراء تحت القلعة ، وقعد فى دار

---

(١) جاء فى الزبدة ، المخطوطة ، الورقة ٦١ ، أن السلطان « سَدّ ما أرادا فتحه من المظالم » .

(٢) كذا فى الأصل ، وانظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٨٣ ، والحاشية ١ .

(٣) أى من هذه السنة (٦٦١ هـ) .

العدل ، وأبطل تسعير الغلّة ، وكتب إلى الأهراء [١] ببيع خمسمائة أردب كل يوم بما يقدره الله تعالى من وَيْبتَين فما دونها على الضعفاء والأرامل ، وأمر بإحصاء من بالقاهرة ومصر وحواضرهما من الفقراء ، وأخذ لنفسه منهم الوفاء . وأعطى لولده [٢] ، الملك السعيد كذلك . وأعطى كل أمير جماعة نظير عدته ، وعلى الأجناد ، والأكابر ، والتجار ، والشهود . وعزل التركمان ناحية ، والأكراد والبلديين كذلك . ورسم أن كل من يخُصّه فقير يعطيه مؤنته مدة ثلاثة شهور ، وفى اليوم الذى جمعهم فيه ليوزعهم ، أمر لكل منهم بنصف درهم قوت يومه ذلك . قال بعض المؤرخين : ولقد وصل الأردب القمح فى الغلاء الكائن فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، فى الأيام العادلية بولاية عهد الملك الكامل ، إلى ثمانين درهما نقرةً الأردب . وأكل الناس بعضهم بعضا . وما دبر أحد هذا التدبير . ولقد عمّ الغلاء الكائن فى زمان المستنصر العلوى ، أحد الخلفاء بمصر ، حتى أن الوزير ركب إلى دار الوزارة ، فأخذت البغلة التى له ، وأكلت للوقت . وشنق آكلوها ، فأكل المشنوقون على الخشب [٣] . وكان هذا الملك الظاهر جامعا بين المصالح ، صارفاً همّته إلى كل عمل صالح .

وفى هذه السنة ، وصل هيثُوم بن قسطنطين ، متملك الأرمن بنجدة من جهة هولاكوه ، وقصد الديار الشامية . فجهزّ السلطان عسكرىْ حماه وحمص إلى حلب ، وأمرهم بالإغارة على عسكر الأرمن . فأغاروا عليه ، وأسروا أميراً من

---

(١) الأهراء السلطانية ، وهى الأماكن التى تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان . انظر ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) جاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ١٨٩ ، « وأعطى لنواب ولده ... » ، وهو ماجاء كذلك فى المقريزى ، سلوك ، ١-٢ ، ص ٥٠٧ ، ولكن جاء فى زبدة الفكرة ، الورقة ٦٤ ، أن السلطان « أفرد منهم [الفقراء] ألوفا يقوّتهم من ماله ، ووزع منهم لولده الملك السعيد جماعة ، وفرق على كل أمير نظير عِدّة جنده » .

(٣) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٢٤ .

أُمرائه ، وأخذوا مائة جمل من البخاتى ، وقتلوا منهم ثلاثين نفراً ، فولّوا منهزمين .

وفى هذه السنة ، استدّ [١] خليج الاسكندرية ، وهو الذى يقال أن الاسكندر حفره . فأرسل إليه الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار ، فحفره وحفر بحر النقيدى أيضا .

وفى هذه السنة ، سامح بما كان قُرّر على ولاية مصر من الرُسُوم ، وهى مائة ألف وأربعة ألف درهم . وبنى المسجد المجاور لمشهد الحُسين .

ومنها أن فى شهر رمضان ، أحضرت فلوس من جهة قوص ، وجدت مدفونة ، فأُخذ منها فلساً ، فإذا عليه صورة ملكٍ واقفٍ فى يده اليمين ميزان ، وفى يده الشمال سيف ، وفى الوجه الآخر رأس مصوّر بأذُن كبيرة ، وبدائر الفلس سطور . فقرأها راهب يونانى . فكان تاريخه إلى وقت قراءته ألفين وثلاثمائة سنةٍ . وفيه مكتوب « أنا غِلْياث الملك ، ميزان العدل والكرم فى يمينى لمن أطاع ، والسيف فى يسارى لمن عصى » . وفى الوجه الآخر : « أنا غِلْياث الملك أذنى مفتوحة لسماع كلمة المظلوم ، وعينى مفتوحة أبصرُ بها مصالح مُلكى » . وهذا الفليسوف الراهب اليونانى الذى قرأ الفلس ، جهزّه السلطان إلى الملك الأشكرى كرميخائيل ، لما بلغه أنه غرّق رسله المتوجهين إلى جهة بركة ، وجهّز معه أسقفاً وقسيساً [٢] .

وفى شوال سنة ٦٦٢ هـ ، فى يوم الخميس الثالث عشر منه ، أركب الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان [٣] ، وخرج بنفسه فى ركابه ، ولم يبق

---

(١) جاء فى السلوك ، ١-٢ ، ص ٥١٠ ، « انسد » .

(٢) انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٥١٤ .

(٣) جاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٠٤ ، « أركب ولده الملك السعيد بشعار السلطنة » ، وهو ما أثبته بيبرس المنصورى فى زبدة الفكرة ، الورقة ٦٥ .

أحد من الأمراء وأولياء الخدمة إلا وعَمّتْه الخلع ، وزينت المدينة ، وتقرر أتابكه الأمير عز الدين الحلى ، وكان راكبا إلى جانبه .

وفى هذه السنة ، وصل الأمير جلال الدين يَشْكُرُ ولد مجاهد الدين الخليفتى (١) من بغداد ، فأمّره السلطان بطبلخاناه .

وفى أواخر سنة ٦٦٢ هـ ، فتح خيبر بالحجاز الشريف .

وفى سنة ٦٦٣ هـ ، وردت الأخبار بأن التتار نازلوا البيرة والورَسَّة (٢) ، فجرّد الأمير عز الدين أيغان (٣) بمقدمة العساكر . ولما وصل السلطان إلى غزة ، وصلت كُتب النواب بأن العدو قد نَصب على البيرة سبعة عشر منجنيقاً . ثم ورد كتابٌ من جهة الأمير جمال الدين النجيبى ، ووجد ضمنه بطاقة من الملك المنصور صاحب حماه ، مضمونها أنه وصل إلى البيرة وصحبته الأمراء المجردين . ولما شاهدهم التتار هربوا وانهزموا . وسيّر أمراً [إلى] الأمراء بتنظيف خندقها الذى ردمه التتار ، وأن يحملوا إلى القلعة حجارة زلط . وقرر على صاحب حماه ألف زلطة ، وعلى كل أمير مائة ، وعلى كل جندى خمسين (٤) ، ثم ثنى أعنتّه إلى جهة الفرنج .

ولما كان يوم الخميس التاسع من جمادى الأولى سنة ٦٦٣ هـ ، نزل السلطان على قيساريّة ، ونازلها وافتتحها .

---

(١) وكان دودارا للخليفة ببغداد ، انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٢٠ .

(٢) كذا فى الأصل ، وربما كان تحريفاً ، فقد جاءت « المحروسة » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٢١ .

(٣) واسمه كما هو مذكور فى زبدة الفكرة ، الورقة ٦٩ هو : عز الدين يوغان الملقب سم الموت .

(٤) انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٢٨ .

وفى جمادى الآخرة ، لما رحل السلطان من قيسارية ، توجّه إلى أرسوف ونازلها وفتحها [١] .

ذكر فتوح قرقيسا فى شهر رمضان : وذلك أن مقدميها سيّروا رهائنهم ، وسألوا العفو ، فسيرّ إليهم من العساكر من تسلّمها .

وفى سنة أربع وستين وستمائة ، عقد الأمير سيف الدين قلاون الألفى على ابنة كرمون التطرى الوافد فى المحرم . وكان يوما مشهودا ، واهتم السلطان بأمره ، وحضر العقد بنفسه ، ونصب الدهليز بسوق الخيل ، وجلس السلطان على الخوان ، وعُمل كل ما يتعلق به من الوظائف ، من الأموال والبيوت السلطانية . وقدم السلطان له تقدمة كبيرة من جملتها أربعة مماليك بخيولهم وعُدَدهم ، فقبل الهدية كلها خلا المماليك ، فإنه اعتفى [٢] من قبولهم ، وقال : « هؤلاء خوشداشيتى يكونوا فى الخدمة السلطانية » . وقدّم كل أمير من أمراء الدولة ثلاثة أرؤس خيل ، وثلاثة بقج قماش . وهذه الزوجة هى التى رزق منها الأمير المشار إليه الملك الصالح علاء الدين على المتوفى فى حياة والده .

وفى شهر رجب سنة ٦٦٤ هـ ، توجه السلطان إلى الشام لغزاة صفد . وجرّد الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، والأمير سيف الدين قلاون الألفى . وفى هذه الغاره ، أخذت القُليعات بالأمان ، وأسروا من كان فيها وهم ما ينيف عن ألف نفر . ولما وصلوا إلى جسر يعقوب شرقى صفد ، رسم السلطان بأن يركبوا على الجمال ، ويكون العُبور بهم على صفد لينظرهم أهلها . وأرسلت

---

(١) قال بيبرس المنصورى فى « زبدة الفكرة » ، الورقة ٧٠ ، أنه حضر هذه الغزاة مع الخميس ، وقال : « وكنت إذ ذلك الوقت فى خدمة الأمير سيف الدين المخدوم [قلاون] ، أُجُرُّ الجنب فى سن المراهق أو قريب » .

(٢) وجاءت « استعفى » فى المقريزى ، سلوك ، ١-٢ ، ص ٥٤٢ .

الجمال من المناخات [١] السلطانية وغيرها ، فحملوا عليها . ولما شاهدهم الفرنج ، ضَعُفت قلوبهم ، وملئوا رعباً مع ما نالهم من الرعب بما شاهدوه من هول العساكر وغاراتها .

وفى السنة المذكورة ، عند عود العساكر من حصار صفد وإلى حمص ، ورد كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس . فتوجهوا إلى نحوها ، وغاروا على ما حولها ، ونزلوا على حصن يعرف بنَيت من عمل حصن الأكراد ، فأخذوه . وفى يوم واحد كان بقلعة حُلبا جماعة ، فأخلوها وهربوا ، ودخلها العسكر وأخربُوها . وكذلك أهل قلعة عَرْقا ، وهى تشبه قلعة حمص ، ومتحصلها فى السنة عشرون ألف دينار [٢] . وفى ذلك الوقت ، سيرّ صاحب صافيتا جاسوسا ، فأمسك وشُنق لوقته .

وفى السنة المذكورة ، جرّد الأمير علاء الدين البندقدار ، والأمير عز الدين أوغان الركنى ، بجماعة من العسكر إلى صور للإغارة عليها ، فدخلوا الجبال فى الليل ، وأغاروا عليها ، وأسروا كمندور صاحب سيس ، وأخذوا وزير صور وجماعة من الفرنج . وبث السلطان العساكر إلى أقاصى البلاد الفرنجية وأدانيها ، ولم يبق فيها ناحية إلا وقع رعب الغارات فيها .

وفى نصف شوال سنة ٦٦٤ هـ ، اجتمعت العساكر المصرية والشامية على صفد [٣] ، ونازلوها وحُملت المنجنيقات على الرقاب [٤] من جسر يعقوب إلى صفد . وقاتلوا الفرنج عليها قتالاً منيعا . وبعد ذلك ، طلبوا الأمان ، فأشرط

---

(١) جمع مناخ ، وهى هنا بمعنى الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية .

(٢) جاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٥٢ ، أن « متحصل بلدها فى السنة من الملالى خمسة عشر ألف دينار ، والأقصاب عشرون ألف دينار .

(٣) كانت صفد إحدى معاقل الفرسان الداوية **Hospitallers** .

(٤) يقول المقريزى فى السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٤٦ ، أن الجمال عجزت عن حملها ، فحملها الرجال من الأجناد والأمراء على الرقاب » .

عليهم ألا يستصحبوا شيئا من السلاح ، ولا من الفضيات [١] ، ولا يؤذوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم . ووقف السلطان راكبا على الباب حتى أخرج الفرنج . وولى القلعة للأمير مجد الدين الطورى . وأمر بضرب رقاب خيّالة الديوية والاسبتار ، وجميع من أخرج من صفد . فضربت أعناقهم على تل قريب من صفد كانوا يضربون رقاب المسلمين عليه . ولم يسلم منهم إلا اثنان : الواحد الرسول الذى كان حضر إلى السلطان ، فإنه عفا عنه [٢] ، والآخر شفع فيه الأتابك ليُخبر الفرنج بما جرى ، وكان من بيت الاسبتار .

وفى أوائل سنة خمس وستين وستمائة ، غزت العساكر الذين توجهوا صحبة الملك المنصور صاحب حماة – كما ذكرنا – إلى سيس . فوصلوا إلى الدربساك ، ودخلوا الدربند مُطلّبين . وكان الملك المجير هيثوم بن قسطنطين بن باساك قد ملّك ولده ليفون ، وانقطع هو مترهبا ، فطلعت العساكر من الجبال وأسرُوه ، وقُتل عمه وأخوه . وانهزم كُند اصطبل عمّه الآخر ، وأُسر ولده ، وهرب صاحب حموّص ، وتمزق منهم اثنا عشر ملكا كانوا فيهم ، وقتلت أبطالهم ، وساقت العساكر ، وأتوا أعمال تل حمدون ، وأحرقوا حمُّوص ، وتوجهوا إلى نهر جهان ، والأرمن تسميه الفرات لأنه نهر كبير ، فخاضه العساكر ونزلوا قريبا من العمودين ، وهى قلعة شاهقة فى الهواء للديوية . وكان فيها من تتر وغيرهم ألفان ومائتان ، فقتل الرجال ، وفُرّقت السبايا على العساكر ، وأحرقت هذه القلعة بما فيها . ودخلوا إلى سيس ، فأخربوها وجَعَلُوها خاويةً على عُرُوشِها ، وهدّموا قلعة الديوية المعروفة بالثنّيات ، وغنمت العساكر مالا يُعّد ولا يُحصى حتى بيع الرأس البقر بدرهمين . وحضر كرجى أحد

---

(١) والمقصود هنا المال ، ابن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ١٤٩ .

(٢) وكان هذا الرسول من الداوية ، انظر المقريزى ، السلوك ، ١–٢ ، ص ٥٤٨ ، والحاشية ١ . وقد أسلم هذا الرسول على يد السلطان وأقام فى خدمته ، انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٦٢ .

أجناد سُمّ الموت بالبشارة ، فأعطاه ألف دينار . ولما حضرت إليه العساكر وصحبتهم ملك سيس ، فأكرمه وأحسن إليه .

ثم تجهّز وخرج ونزل على قارا ، فإنه كان بلغه أنهم يبيعون المسلمين لأهل حصن عكار ، فأمر السلطان بأن ينهبوهم ويقتلوهم ، ففعلوا ، وسُبيت ذراريهم .

وفى أول شهر ربيع الأول ، أعطى الملك السعيد إقطاعا . وخرج من القلعة إلى الدهليز ، وقبّل السنجق . وفى الثانى والعشرين منه ، فكّ قيد ليفون صاحب سيس ، وكتب له موادعةً [1] على بلاده إلى مدة سنة .

وفى ثامن ربيع الآخرة ، رتّب أن يكون ميدان قراقوش ، بالحُسينيّة جامعا ، وبقيته وقفا على الجامع .

وفى جمادى الآخرة ، وصلت رُسل الدعوة [2] ، وأحضروا جملة من المال الذى كانوا يحملونه قطيعة [3] للفرنج . وهذا مما يدل على تمكن مملكته ، لأن بيت الدعوة مازالوا يقطعون مصانعة الملوك ، وكانت لهم قطائع مرتبة فى كل سنة على مملكة الديار المصرية [4] .

ولما فتح السلطان قيسارية وأرسوف ، أمر بعمارة قلعة قاقون ، فعُمِّرت وعُمِّرت الكنيسة جامعا ، وذلك فى السنة المذكورة .

---

(١) أى مهادنة ومصالحة .

(٢) وهم الشيعة الاسماعيلية ، واشتهروا باسم الفداوية ، صالحهم السلطان صلاح الدين الأيوبى على قلاعهم بأعمال طرابلس سنة ٥٧٢ هـ ، ثم انتموا إلى ملوك مصر فى أيام الظاهر بيبرس . واشتهروا بالفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٢٤٥/١٣ .

(٣) وهى ضريبة كانت تؤدى كل سنة .

(٤) أضاف ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٧٤ ، أنهم « فى دولة السلطان صاروا من جملة علمانه ، وحملوا إليه القطيعة كما ذكرنا » .

وفى يوم الجمعة ثامن ربيع الأول ، أقيمت الخُطبةُ والجُمُعةُ بالجامع الأزهر بعد أن أُخِذت خطوط العُلماء والفُقهاء والحُكام بجوار الجمعة بالجامع المذكور . ولم يُقم به خطبةٌ إلا للخليفة الحاكم ، ومن بعده للسلطان . ويقال إن به طِلَّسْماً [١] لا يسكنهُ عصفورٌ ولا يُفرخُ فيه .

وفى هذه السنة نزح الماء من بئر السقاية التى ببيت المقدس ، ووُجد فى البئر قناة مَسْدُودة من الزمن القديم . فأحضر الأمير علاء الدين الحاج الركنى من كشف القناة السُليمانيّة ، ومشوا فيها تحت الأرض إلى الجبل الذى تحت الصخرة . فوجدوا بابا مقنطراً ، ففتح ، فخرجت عين ماء كادت تغرقهم . ثم نقص ونزح ودخل إليه الصنّاع فوجدوا سداً ، فنقب الحجارون فيه مقدار عشرين يوما ، ووجدوا سقفا مقلفطاً [٢] ، فنُقب فيه مائة وعشرون ذراعاً بالعمل [٣] ، فخرج الماء ، وملأ القناة [٤] .

ذكر ما أنشىء فى أيامه من البحور والقناطر والجسور فى هذه المدة بعد ما تقدم ذكره

من ذلك النُقيدى ، بحر طناح ، تُرعة الصلاح عوضاً عن تُرعة رمسيس ، المجارى ، الكافورى ، تُرعة إكياد [٥] ، تُرعة الفضل ، بحر الصّمصام [٦] بالقليوبية ، بحر السردوس كان قديما جسر سهم الدين بالقليوبية ، قناطر الديماص [٧] بالقرب

---

(١) كلمة يونانية جمعها طِلَّسْمات وهى خطوط أو كتابة يستعملها الساحر ويزعم أنها تدفع الأذى .
(٢) اسم مفعول من قلفط وهو تحريف فعل حلفط أى سدَّ .
(٣) أى بالذراع المعمارى وقياسه ثلاثة أشبار بشبر الرجل المعتدل . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٤٤٦/٣ .
(٤) وكان ذلك فى شهر ذى الحجة من سنة ٦٦٥ هـ . ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٨٨ .
(٥) فى الأصل « كياد » .
(٦) جاء اسمه « الصماصم » فى المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٦٣٩ .
(٧) أو دماص ، وهى بالقرب من ميت غمر .

من المنصورة ، قنطرة بحر منية [١] الخنازير ، قنطرة بالقصير بأربعة أبواب ، قنطرة على بحر أمواس بسبعة أبواب . وعمل فى الجسر الذى يسلك عليه إلى دمياط ، ست عشرة قنطرة . وأمر بإنشاء قرية الظاهرية بمكان بالقرب من العبّاسة بوادى السدير ، وعَمّر بها جامعا . وهذه العبّاسة مازال الملوك يتنزهون بها ، وبها ولد العباس أحمد بن طولون ، وسمى العبّاس لذلك [٢] . وكان الملك الكامل يؤثر الإقامة بها ، ويقول : « هذه قفل مصر ، إذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء ، والسمك من الماء ، والوحش من الفضاء » [٣] . وبنى بها مناظر وأدر .

وبلغ السلطان فى هذا الوقت حركة التتار للغارة على حلب ، وتوجه السلطان لعمارة صفد وغير ذلك فى مستهل جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ هـ . ولمّا وصل إلى غزة ، بلغه أن جماعة من الجمالين تعرضوا إلى زرع ، فقطع أنوفهم . وساق سنجر الحموى ، أحد أمرائه ، فى زرع ، فأنزله عن فَرَسِهِ ، وأعطاهُ بسرجِهِ ولِجَامِهِ لصاحب الزرع . وبلغه رُجوع التتار ، فعاد من دمشق إلى صفد ، ورتّب عمارتها . ووصلت رُسل الفرنج ، وتحدّثوا فى أمر بلادهم ، وأجابوا إلى مناصفة صيدا ، وهدم الشقيف . وأنكر عليهم غاراتهم على مُشغرا . وأقيموا قياما مزعجا ، وردّوا بغير جواب . وتوجه بنفسه إلى أبواب عكا ، وعمل برجا هناك تحت ذيل التل . وكان واقفاً على فرسه والعساكر تنهب وتحرق وتخرّب وتُقطِّع الأشجار . وقرّر على أهل صور دية السابق شاهين [٤] الذى قتلوه ،

---

(١) أو ميت خنازير ، مركز بنها ، وتعرف الآن بمنية السباع .

(٢) ذكر مؤرخو الدولة الطولونية أن العباسة سميت على اسم العباس ، وقيل ابنته العباسة ، وليس العكس ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « عباسة » ، المجلد الأول ، ص ١٤ .

(٣) وأضاف ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٩١ : « ويصل الخبز من قلعتى إلىّ بها وهو سخن » .

(٤) أحد غلمان السلطان بيبرس ، وكان قد قتل فى صور ، فاشترط السلطان لأجل استمرار الهدنة أن تدفع مدينة صور دية لأولاد القتيل . انظر النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ٩١ .

خمسة عشر ألف دينار صوريّة . وكتبت هُدنة لصور وبلادها لمدة عشر سنين ، وعدّتها تسع وتسعون قرية . وقُررّت الهدنة مع بيت الاسبتار على حصن الأكراد والمرقب لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات .

وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وحَماه وغيرها (١) ، وكان المُقرّر على بوقبيس ستمائة دينار مصرية ، وعلى عتاب خمسمائة دينار سُوريّة ، وهو رسم يعرف بالمُفادنة ، وأصله عن كل فدان مكوكا (٢) غلةٍ وستة دراهم .

وفتح شقيف أرنون فى الشهر المذكور ، وتسلّمه من الفرنج فى السادس والعشرين من رجب سنة ٦٦٦ هـ .

وفتح يافا ، وهو أن أكابرها حضَروا إليه ، فعّوقهم ، فبذلوا لَهُ تسليمها على أن يُطلقوا هم وأولادهم وأموالهم . فأجابهم إلى ذلك ، وأمر بهدم القلعة ، فهدمت .

وفى شهر شعبانِ ، أغار على طرابلس ، وأقام على طرابلس فى هذه الغارة ، وقتل وأسر وهدم الكنائس التى بظواهرها ، وقُطعت أشجارها ، وغَنمت العساكر من جهاتها . ورحل منها فى التاسع والعشرين من شعبان . وأما صاحب صافيتا وانطرسوس ، فإنه حضر إلى الخدمة .

وفى شهر رمضان سنة ٦٦٦ هـ . فتح مدينة انطاكية ، وقاتلوا أهلها قتالا شديدا . ثم قتَّلوا وأَسَروا ونهبوا . وأمر السلطان بجمع المكاسب ، فجمع من الأموال والمصُوغ ما لا يُحصى كثرةً . وقُسّمت النقود بالطاسات والشربات ، ولم يبق غلام إلا وله غُلام . وتقاسم الناس النسوان والبنات والأطفال . وبيع الصغير

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٣ .

(٢) وجمعه مكاكيك ، وهو مكيال للحبوب سعته صاع ونصف ، والصاع قدر نصف وية ، والوية قدر ثلاث كيلات .

باثنى عشر درهما ، والجارية بخمس دراهم . وأحرقت القلعة . وقُسّمت الأموال والجوارى والولّدان على العساكر . وباشر السلطان قِسمة ذلك بنفسه . وأرصد الذى خصّه من الغنائم لعمارة الجامع الذى أنشأه بالحُسَينيّة .

وفى أثناء ذلك ، كان الصُلْح مع القُصَير . فإنه كان [١] للبطرك خالصةً . وزعموا أن بأيديهم خطاً من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه . فبذل المذكور نصف البلاد للسلطان . فكتب لهم هدنة بذلك .

وفتح حصن بغراس من أيدى الداوية . وذلك أنه لمّا فتحت هذه الحصون ، انهزم أهلها . ولما دخلها المسلمون فى ثالث [٢] رمضان من السنة المذكورة ، لم يجدوا بها سوى امرأة واحدة عجوز ، ووجَدوها عامرة بالحواصل والذخائر .

واصطلح السلطان مع التكفور بن هيتوم ، صاحب سيس ، وأطلق ولده عند إحضار شمس الدين سنقر من التتار ، وبعد أن سلموا للسلطان قلعة بهنسا والدَرْبَساك ومَرْزَبان ورُعْبَان والرزب وسبخ الحديد [٣] . وكتبت الهدنة بذلك فى شهر رمضان بأنطاكية .

ولما أعطى السلطان أفرير ماهى صَافاج [٤] الأمان على صافيتا وأنطرسوس ، سلّم جبلة ، فتسلمها النواب منه فى شهور السنة المذكورة .

ووصلت رسل أوك بن هرّى [٥] صاحب قبرس وعكا عند غَزاة

---

(١) وجاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٢٥ : « كانت القصير للبطرك الكبير خالصةً له » .

(٢) ورد فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٢٥ ، أن هذا حدث فى « يوم السبت ثالث عشر رمضان » ، وليس « فى ثالث رمضان » .

(٣) جاءت « شيخ الحديد » فى عقد الجمان للعينى ، ص ٢٣٥ ، وأوردها المقريزى فى السلوك ، ص ٥٦٩ باسم « شيح الحديد » .

(٤) انظر بيبرس المنصورى ، التحفة الملوكية ، ص ٦٤ ، والحاشية ٢ .

(٥) انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٧١ ، والحاشية ١ .

السلطان من أنطاكية ، ورجُوعه إلى دمشق . وتقرّر الاتفاق بين السلطان وبينه على عكا وبلادها ، وثلاثين ضيعةً ، وأن حيفا تكون للفرنج ، ولها ثلاثُ ضياع ، وبقية بلادها مناصفةً ، وعتليت يكون لها خَمسُ قُرىً ، والباقى مناصفة ، وللقرين عشرة قرايا ، والباقى للسلطان ، وبلاد صيدا الوطأة للفرنج والجبليّات للسلطان . واتفق الصلح على مملكة قُبرس ، وأن تكون الهدنة لعشر سنين . وسيرّ السلطان إليه هدية عشرين نفرا من أُسارى أنطاكية قسيسين ورهبانا .

ووصلت رُسل من ابغا ملك التتار إلى السلطان ، وكتب لهم جواب الكُتب التى سيّروها .

وفى هذه السنة [١] ، توجّه السلطان إلى الديار المصرية خفية . ورجع إلى المخيم بخربة اللصوص لأنه كان ادّعى الضعف ، ودعا بالأشربة والأدوية من دمشق . وكتب إلى النواب بالشام بأن يكاتبوا الملك السعيد ، ويعتمدوا على أجوبته . ورتب أنه كلما جاء بريد يقرأه عليه الأمير سيف الدين [بلبان] الرومى الدوادار . وتخرج علائم على دروج بيض تكتب عليها أجوبة البريد . واستقرت هذه القاعدة أياما . وتقدّم إلى الأيدمرى وجرمك الناصرى بأنهما يتوجهان إلى حلب على خيل البريد . ولما ودَّعاه ، أوصاهما أن يُحيّدوا إذا ركبوا إلى خلف الدهليز ليتحدث معهم مشافهة . وجهز معهم أقسنقر الساق فى البريد . ولبس السلطان جوخة مقطّعة ، واعتمّ [٢] بشاش دُخانى عتيق ، وأراد أن يخرج ولا تعلم [٣] به الحراس . فوجد قماش نوم لأحد المماليك ، فحمله ومشى به ومعه بعض الخدام على أنه واحد من البابيّة [٤] . وخرج وتوجّه

---

(١) جاء أن هذه السنة هى ٦٦٧ هـ ، انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٧٤ .
(٢) جاء فى المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٧٥ : « وتعمّم » .
(٣) كذا فى الأصل ، وجاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٤٣ ، « ولا يعلم » .
(٤) لقب عام لجميع رجال الطست خاناه ، وممن يتعاطون الغسل والصقل .

واستصحب معه أربعة جنائب ، والثلاثة الأمراء المذكورين ، وعلم الدين شقير البريدى . ووصلوا إلى القُصير المعينى نصف الليل . فدخل السلطان إلى الوالى ليأخذ فرسه ، فهاوشهُ رجاله ، ومنعوه من ذلك . وتوّجه إلى بيسان ، وقعد عند رجلى الوالى وهو نائم ، وطلب منه كوزاً . فقال له الوالى : « إن كنت عطشانا ، فاخرج اشرب من بَرّاً » ، وأغلظ عليه . وأحضر الأمير بدر الدين كرازا [١] فشرب ، ثم ساروا ، فصابحوا جينين . ونزلوا على تل العجول . وبقى كل منهم ماسكاً فرسه ، وركبوا منها ، ووصلوا إلى العريش . فقام السلطان وجرمك الناصرى ونقيًّا الشعير الذى علّقاه على الخيل ، وقال للأيدمرى [٢] : أين السلطنة وأستاذ الدار وأمير جاندار ؟ وأين الخلق الواقفون فى خدمتنا ؟ هكذا تخرج الملوك من ممالكها ، وما يدوم إلّا الله سبحانه ! ووقفت منهم الجنائب التى كانت على أيديهم ، ولم يبق إلا الجنيب الذى كان على يد السلطان . وكان وصولهم إلى القلعة فى ثالث يوم . وأوقفهم [٣] الحُراس على مشاورة والى القلعة عليهم على العادة . ونزل السلطان فى باب الاسطبل الجوانى ، وطلب أمير آخور ، وكان قد رتّب مع زمام الأدر [٤] ، أنه مادام مسافرا ، لا يبيت كل ليلة إلا خلف باب السّر . وقررّ معه أمائر وعلامات لا يطلّع عليها غيرَهما ودق باب السّر ، فأُحسّ به الطواشى ، وذكر تلك العلامات ، وفتح له وأحضر الأُمراء الثلاثة رفقته والبريدى إلى باب السر . وأقام الثلاثاء والأربعاء والخميس لا يعلم به أحد ، ولا ولده الملك السعيد إلا زمام الأدر فقط . وهو كل يوم يتفرّج على الأمراء إذا ركبوا فى سوق الخيل . وفى يوم الخميس ، خرج

---

(١) عبارة عن قارورة أو كوز ضيق الرأس ، والجمع كرزان . انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٧٦ ، والحاشية ٢ .

(٢) فى السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٧٦ ، « لجرمك » .

(٣) فى الأصل : « وأوقفوهم » .

(٤) انظر المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٥٧٧ ، والحاشية ١ .

الملك السعيد ليركب الموكب ، فقدّم أمير اخور فرساً للملك السعيد ، وفرسا للسلطان . ولمّا أحسّ الملك السعيد به ، خاف وذعر ، ثم إنه لمّا عَرفه ، قبّل الأرض بين يديه . وركب السلطان الفرس الذى قُدّم له ، وخرج بغتة والوقت بغَلَسٍ . فأنكر الأمراء ذلك . ولما تحققوا ، قبّلوا الأرض . وعاد من الموكب إلى القلعة . وأقام الخميس والجمعة . ولعب يوم السبت الكرة . وتوجّه إلى مصر فى الحراريق ، ثم سافر ليلة الاثنين على البريد . ولما قربوا إلى الدهليز ، ردّ الأيدمرى وجرمك إلى خيامهما . ودخل من باب سرّ الدهليز . وركب عصر يوم الجُمعة . وحضر الأمراء إلى الخدمة ، وضُربت البشائر .

وأغار على صُور ، وتسلّم بلا طُنس من عز الدين صاحب صهيون ، وقررّ لهُ عوضاً عنها بلادا من بلد صَهيون .

وفى تاسع جمادى الأولى من هذه السنة ، رسم بإبطال الخواطىء [١] من القاهرة ومصر . وطُهرت منهم ، وكذلك الديار المصرية .

وفى الحادى والعشرين من شعبان ، وردت الأخبار بأن زلزلة عظيمة حدثت فى بلاد سيس ، وأخربت قلاعها مثل سرفندكار وحجر شغلان ، وقتلت جماعة .

وفى الشهر المذكور ، [سارت] الغيارة من البيرة وغيرها إلى جهة كركر ، فأحرقوا بلدها ، وأخذوا مواشى . وتوجّهوا إلى قلعة بين كركر والكختا اسمها شرموساك ، فزحفوا عليها ، وقتلوا رجالها ، ونهبوا من المواشى شيئا كثيرا ، وأخرجوا من الفلاحين خلقا كثيرا .

وفيها انفرد الشّريف نجم الدين أبو نمى بإمرة مكة ، وأخرج عمّه بهاء

---

(١) جمع خاطئة أى « البغايا » ، انظر المقريزى ، سلوك ، ١-٢ ، ص ٥٧٨ .

الدين إدريس بن قتادة . ووردت كتبه إلى السلطان بأنه خطب له . فكتب له تقليد الإمرة .

وفى سنة ٦٦٧ هـ ، توّجه إلى الحجاز الشريف من الشام . ولمّا عزم على الحج ، عيّن جماعة يتوجهون معه . ولم يَجسُر أحد [أن] يتفوّه بأنه متوجه إلى الحجاز الشريف حتى أن جمال الدين بن الداية الحاجب قال : « اشتهى أتوجّه صُحبة السلطان » ، فأمر بقطع لسانه . ورحل من الفوّار يوم الخميس خامس والعشرين من شوال . ووصل إلى الكرك مستهل ذى القعدة . وتوّجه إلى الشوبك فى السادس منه . ورحل متوجها فى حادى عشره . وفى الخامس والعشرين منه رحل ، ووصل الميقات ، فأحرم ، وقدم بمكة خامس ذى الحجة . وبقى كأحد الناس لا يحجبه أحد ، وغَسل الكعبة بيده ، وحمل الماء فى القرب على كتفه ، وغسل البيت . وبقى فى وسط الخلائق . وكل من رمى احرامه إليه ، غسله له بما ينصبُّ من الماء فى الكعبة . وجلس على باب الكعبة ، فأخذ بأيدى الناس ، وتعلق أحد العوام بإحرامه فقَطعهُ وكاد يرميه إلى الأرض . وسبَّل البيت الشريف لسائر الناس . وكتب إلى صاحب اليمن كتابا يقول فيه : سطّرتها من مكة ، وقد أخذتُ طريقها فى سبع عشرة خطوة يعنى بالخطوة المنزلة . وقضى فرض حجه كما يجب ، وحلق ، ونحر ، وأحسن إلى أميرى مكة ، وإلى صاحب ينبع ، وصاحب خُليص [١] ، وزعماء الحجاز . ورتبّ شمس الدين مروان نائبا بمكة عند أميريها . وخرج من مكة فى الثالث عشر من ذى الحجة ، ووصل المدينة فى العشرين منه . وأجدّ السير ، فوصل الكرك بكرة الخميس سلخه . ولم يعلم به أحد إلى أن وصل قبر جعفر الطيار [٢] . ودخل الكرك

---

(١) حصن بين مكة والمدينة ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٤٦٧/٢ .

(٢) يقع هذا القبر فى مؤتة ، المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ٥٨٢ .

لابسا عباءة ، وراكبا هجينا . فبات بها ليلته تلك . وأصبح متوجها منها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، فعمل القاضى محى الدين بن عبد الظاهر [١] أبياتا منها :

بينا تراه فى الحجاز إذا به ... فى الشام للحج الشريف يقدس
وتراه فى حلب يدبر أمرهـا ... وتراه فى مصر يذب ويحرس
ويلوح [٢] فى حج عليه عباءة ... ويلوح [٢] فى غزو عليه الأطلس

ولما وصل إلى دمشق ، حضر إلى الميدان بغتة ، ولم يلبث بل ركب فى نهاره ، وتوجه إلى حلب . وحضر الناس عشية [٣] النهار إلى الخدمة ، لم يجدوا أحداً . ودخل السلطان حلب والأمراء فى الموكب ، فما عرفه أحد ، وبقى ساعة حتى عرفه الصيروىُّ [٤] .

ثم نزل بدار نائب السلّطنة ، ومشاهد القلعة ، وعاد منها . ولم يدر به أحدٌ . ووصَل إلى دمشق فى ثالث عشر المحرم . ولعب الكرة ، وتوجّه فى الليل إلى القدس الشريف والخليل ، فزارهما . وكان العسكر المصرى قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين اقسنقر أستاذ الدار إلى تل العجول . وحضر السلطان إليها . وكان قد صلى الجمعة فى الكرك ، والجمعة الثانية فى حلب ، والجمعة الثالثة فى دمشق . وحضر إلى تل العجول ، وذلك كله فى عشرين يوما ، وما غيرّ عباءته التى حجّ فيها . ودخل قلعته فى الثالث من صفر . وفى ثانى عشره ، توجه إلى

---

(١) كاتب الإنشاء والمؤرخ ، ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) وتوفى بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) .

(٢) جاءت فى التحفة الملوكية « وتراه » ، وانظر أيضا فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٥٧ حيث وردت « ويلوح » .

(٣) كتبت فوقها كلمة « بقية » .

(٤) جاءت « الصرورى » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٥٩ ، وهو تحريف . وهو سيف الدين الصروى ، انظر نفس المرجع ، ص ٤٠٠ .

ثغر الاسكندرية . وفى طريقه دخل البرية ، وضرب حلقة على الكُحيلّيات ، فأُحضر إلى الدهليز ثلاثمائة غزال ، وخمس عشر نعامة ، فأعطى عن كل غزال بغلطاقٍ [١] مُفرّى بسنجاب ، وعن كل نعامة فرسا ثمينا مُسرجاً مُلجماً . ودخل إلى الاسكندرية فى الحادى والعشرين من الشهر . ونزل بالليونة [٢] ، وابتاعها من وكيل بيت المال ، وعاد إلى القلعة فى ثامن شهر ربيع الأول .

ولما بلغه أن التتار تواعدوا مع الفرنج الساحلية ، وأغاروا على الساجور قريب حلب ، وأخذوا مواشى العربان ، توجّه فى جماعة يسيرة من قلعته ليلة الاثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة ، وأراح العساكر بالديار المصرية ، ووصل غزة ومنها إلى دمشق . وكان وصوله إليها سابع ربيع الآخرة . ولما سمع التتار بوصوله انهزموا .

وفى هذه الدفعة ، أغار السلطان على عكا لأنه بلغه أنه حضر إلى عكا سفائن فيها جماعة من الفرنج الغُرب ، وذكروا أن الريدراكون [٣] أحد ملوك الغُرب واصل إليهم ، وتوجهت رُسله إلى ابغا بن هلاكو بأنه واصل لمواعدته . واتصلت الطرقات بينهما من جهة سيس . وصار الفرنج الغُرب يخرجون هم وأهل عكا ، ويركبون بظاهر عكا ، وتعجبهم نفوسهم . وبلغهم قلة من وَصَلَ مع السلطان إلى الشام ، وتوهموا أنه لا يقصدهم . فخرج على أنه يتصيد فى مرج برغوت [٤] . ولما وصل إلى برج الفلوس ، أحضر العُدد والآلات والعسكر

---

(١) أو البغلوطاق ، لفظة فارسية تطلق على الجبة التى لا أكمام لها أو قصيرة الأكمام جدا ، وكانت تصنع من القطن البعلبكى الأبيض أو الحرير ، انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٦٠ ، والمقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٨٤ ، وعادة ما تُزين بسنجاب .

(٢) بلدة من أعمال مريوط ، ابن دقماق ، كتاب الانتصار ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

(٣) ملك أرجونة خايم الأول ، انظر النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٠ .

(٤) على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب .

الشامى ، وركب وصابح الفرنج . فخرج كندوفير [١] المسمى زيتون وأخوه وجماعة من الفرنج . وأُسر ابن أخت زيتون ، وقُتل نائب فرنسيس ، وجماعة من الخيّالة . ولم يعدم فى هذه الغارة من الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطونبا الفائزى . وعاد السلطان إلى دمشق ، ورؤوس القتلى قُدّامه . وتوجه إلى حصن الأكراد فى عدة قليلة . فخرج جماعة من الفرنج مُلبسين ، فحمل فيهم وقتلهم ، ورعت الخيول مروجها وزروعها ، وعاد عنها .

وفى شهور ٦٦٨ هـ ، حصل الاستيلاء على بلاد الاسماعيلية ، لأنه كان أبطل رسومهم ، وأخذ الحق من مراكبهم ، ورسلهم ، وكسر شوكتهم ، وضايقهم ، ولم يحضر أحد منهم . وكان صارم الدين بن الرضى ، صاحب القليعة [٢] قد حضر إلى الخدمة ، وقلّده السلطان بلاد الدعوة استقلالا ، وعزل نجم الدين الشُغرانى [٣] وولده عن نيابة الدعوة . ونعت صارم الدين بالصُحوبية على عادة نواب الدعوة . وسيرّ السلطان معه عسكراً إلى مَصياف فى العشر الأوسط من رجب ، وتسلمها ، وهى كرسى مملكتهم ، وبها مقر الفداوية ، ومَصياف هذه كثيرا ما تكتب بالثاء المثلثة ، وقيل إنما سمى هؤلاء بالاسماعيلية لأن جماعة منهم ينتسبون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق [٤] .

وفى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٦٦٩ هـ ، توجه السلطان إلى دمشق هو والملك السعيد ولده . وأغار على المرقَب ، وقتل وأسر وأخذ صافيتا بالأمان من الفرنج .

---

(١) والمقصود هو الكونت أوليفر ، ولعل زيتون ترجمة لكلمة Olivier !

(٢) من حصون الإسماعيلية بالشام . وجاء اسم هذا الحصن فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٦٥ ، والمقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٥٨٦ ، « العليقة » ، وانظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٥٣/٤ .

(٣) جاء هذا الاسم فى المرجعين السابقين على أنه « الشعرانى » ، وهو تحريف ، وماأثبتناه هو الصحيح ، فصاحب هذا الاسم مسوب إلى شُغرا من بلاد الشام .

(٤) راجع التفاصيل فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٦٦ - ٣٦٩ .

وفى شهر شعبان سنة ٦٦٩ هـ ، فتح حصن الأكراد بعد مقاتلة الفرنج وطَلَبِهم الأمان .

وفى العشرين من رمضان سنة ٦٦٩ هـ ، فتح حصن عكار ، وهو أنه لما توجه إليها ، ومهدَّ الطرقات ، ورتب طلوع المنجنيقات ، فطلب الفرنج الأمان ، فأمنهم .

وفى سلخ الشهر المذكور ، جهَّزهم السلطان إلى مأمنهم . وقال فى ذلك القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر [1] :

يامليك الأرض بُشراك ... فقـــد نلت الإرادة
إنّ عكّـــار يقينـــاً ... هى عكّا وزيـــادة

ولما عيّد السلطان عيد رمضان ، قصد طرابلس بالجيوش الملبّسين . ولما نزل بها ، أرسل البرنس يطلب الصلح . فأجابه السلطان وحلف له ، وكتبت الهدنة لمدّة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام .

وفتح العُليّقة من الاسماعيلية لأنه رسم للعسكر الذى ببلاطنس بمنازلتها ، فنازلوها فى شهر شوال ، وتسلموها فى الحادى عشر منه .

وفى تاسع شوال كان بدمشق سيل عظيم وقت الظهر أتى على كل شيء فجعله كالرميم . وطلع فى سور دمشق قدر رُمح ، وأغرق من الحيوانات شيئا كثيرا ، ودخل المدينة ، فأفسد بها عدة أدر . ويقال إنه هلك به عشرة آلاف نفس . وأخذ الطواحين بحجاراتها ، واقتلع الأشجار من أصولها ، وما علم من أى جهة كان اجتماعه ، ولا أين ذهب . وبعد وقوعه بأيام ، دخل السلطان

---

(١) انظر مؤلّفه « الروض الزاهر » ، ص ٣٨١ .

دمشق فلم يجد بها ماءً ولا حمّاما دائرة ، وشرب الناس من الصهاريج والآبار ، فسبحان من أفاضه ثم أغاضه .

وفى ذى القعدة سنة ٦٦٩ هـ ، فتح القُرين . وكان لاسبتار الأمن [١] ، ولم يكن لهم بالساحل غيره . وكان نازله ، فطلبوا الأمان ، فأمنهم بعد أن قرّر معهم أنهم لا يستصحبون مالا ولا سلاحا ، وهدمت قلعته .

وفى شوال سنة ٦٦٩ هـ ، كتب السلطان إلى الديار المصرية بتسفير الشوانى [٢] لقصد قبرس ، وإشغال صاحبها ليفارق عكا . ودهنوا الشوانى سوداً تشبهاً بشوانى الفرنج ، وعملت عليها أعلام بِصُلبان حتى إذا رَأوها الفرنج يعتقدونها منهم ، فيطمئنوا ، وينالوا هم الفُرصة ، فانكسرت بمرسى النَمسون [٣] بقبرس . وورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان وفيه تقريع بأن شوانى مصر خرجت وكسرها الريح ، وهى أحد عشر شينيا . وأمر السلطان أن يكتب جوابه ، فكتب . ومن جملته : قد كنت عرّفتنا أن الهواء كِسر عدةً من شوانينا ، وصار بذلك يتبجح ، وبِهِ تُسَرُّ وتفرح ، ونحن الآن نبشرُهُ بفتح القريُن ، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله به مُلكنا العين ! ، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، [و] الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا وعلم الله أن قولنا هو الصحيح ، واتكل واتكلّنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه ، كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح ، إنما النصر بالسيف هو المليح ، وفى يوم نُنشىء عدة قطائع ولا يَنشَأ لكم من حصن قطعة ، ونُجهّز مائة قلع ولا يتجهز لكم فى مائة سنة قلعة . وكل من أعطى مقذافاً قذف ، وما كل من أعطى سيفاً أحسن

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعله « الأرمن » كما جاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٨٥ ، الحاشية ٣ .

(٢) ومفردها « شينى » أو « شينية » ، وهى السفينة الحربية الكبيرة .

(٣) أى ميناء ليماسول فى قبرس .

الضرب به ولا عرف . وإن عُدِمت من بحرية المراكب آحاد ، فعندنا من بحرية المواكب ألوف ، وأين الذين يطعنون بالمجاذيف فى صدور البحر من الذين يطعنون بالرماح فى صدور الصفوف . وخيولكم المراكب ، ومراكبنا الخُيول ، وفرق بين من يُجريها كالبحار ومن تقف به فى الوُحول ، وفرق بين من يتصيدُ على الصقور من الخيل العِراب ، وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغُراب [١] ، فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم قرية معمُورةً ، وإن استوليتم على سكان ، فكم أخلينا بلادكم من سُكان ، وقد كسب وكسبنا ، فتُرى أينا أغنم . ولو أن فى الملك سكونًا [٢] كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم .

ولمّا علم صاحبُ صُور قُرب الجوار منه دخل فى المراضى [٣] ، وحضر[ت] رُسله ، وحصل الاتفاق على أن يكون له عشرة بلاد خاصة ، ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها خاصاً ، وبقية البلاد مناصفة ، وحلف لهم السلطان ، وحلف صاحب صور . وعاد السلطان إلى مصر فى ثانى عشر ذى الحجة . وتقدم بعمارة الشوانى وباشرها بنفسه . وفرق على الأمراء والعساكر ألفين وثمانمائة وخمسين رأسا من الخيل . وأعطى مبلغا لمن لم يُعطه فرساً ألف وسبعمائة نفر .

وفى هذا الوقت ، وردت كتُب النواب بأنهم استولوا على الرصافة ، فتوجه إلى الشام فى سنة ٦٧٠ هـ ، وكشف القلاع .

وبلغه أن التتار أغاروا على عين تاب ، وتوجهوا إلى عمق حارم . فكتب

---

(١) والجمع أغربة ، وهى السفينة الشراعية الحربية .

(٢) جاءت « سكوتا » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٨٨ . الصحيح هو ما أثبتناه .

(٣) جاءت « المواضى » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٨٩ ، والصحيح هو ماأثبتناه ، فالمراضى من التراضى ، وهو المراد هنا .

إلى الديار المصرية بتجريد الأمير بدر الدين بيسرى وصحبته ثلاثة آلاف فارس . ولما وصلوا إلى دمشق ، فسار السلطان إلى حلب ، وسيّر إلى كل جهة أميرا . وجرّد الحاج طيبرس [١] وعيسى بن مهنا إلى مرعش وحرّان . فقتلا بها من كان من التتار .

وفى أثناء ذلك ، بلغ السلطان أن الفرنج أغاروا على قاقون ، وقتل الأمير حسام الدين أستاذ الدار ، وكانت [٢] باتفاق مع التتار . ولما بث السلطان العساكر فى الجهات المذكورة ، انكفّ التتار ، وولى الفرنج الأدبار . وعاد السلطان إلى الديار المصرية فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٧٠ هـ .

وعاد إلى الشام فى شعبان من السنة المذكورة ، وحضرت إليه رُسُل الفرنج ، فأنعم عليهم بشفرغم [٣] ونصف اسكندرونة ونصف ضيعة من عَملها . وردّ فلاحى البلاد المُعيّنة فى الهدنة وتقرر مُدتها عشر سنين وعشرة أيام [٤] وعشرة شهور [٤] وعشر ساعات .

ثم وصلت إليه رُسل البرواناه [٥] ، ورسول صَمغار مقدم التتار فى طلب الصلح . فجهز إليهما مبارز الدين الطورى الطبردار ومعه فخر الدين إياز المقرى . وأرسلهما صحبة رسلهما ، ومعهما هدية . وعادوا فى ذى القعدة .

ووصل الخبر أن المرشيلية أخذوا مركبا فيه رسل كان السلطان جِهّزهم إلى

---

(١) الوزيرى ، كما جاء فى العينى ، عقد الجمان ، ص ٢٤٥ ، وفى Receuil des Hist. Or. II,1 .

(٢) أى الغارة .

(٣) كذا فى الأصل ، وجاءت « شفرعم » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٩٨ . وانظر زبدة الفكرة ، المخطوطة ، الورقة ٧٧ ، حيث وردت « شفرغم » .

(٤) كذا فى الأصل ، ولعل الصواب « عشرة شهور وعشرة أيام » .

(٥) الأمير معين الدين سليمان المعروف بالبرواناه ، كان من مشاهير أمراء الروم ، (ت ٦٧٥ هـ) .

الملك منكوتمر من جهته صُحبة رُسل كانوا قد وصلوا منه ، وأحضروهم أسرى إلى عكا . فطلبهم السلطان من الفرنج ، فأطلقوا رسول السلطان أولا ، ثم أرسلوا بقية الرسل بجميع ما أُخذ لهُم . وفى التاسع من ربيع الأول سنة ٦٧١ هـ ، وردت الأخبار بحركة التتار ، وحضروا ونازلوا البيرة والرحبة . فتوجه السلطان من دمشق ، ووصل إلى الفرات . ووجد التتار قد امسكوا المخاضة (١) ، وكانوا خمسة آلاف فارس ، ولهم مقدم يُسمى جُنقر . وكان السلطان قد استصحب عدة مراكب من دمشق ، فرميت فى البحر ، وركب فيها الرجّالة الأقجيّة ، ورمت العساكر الاسلامية نفوسهم (٢) فى الفرات بخيولهم ، وساقوا فيها أطلاباً عوماً ، الفارس إلى جانب الفارس متماسكين بالأعنّة ، معتمدين على العوامل قد جعلوها مجاديف لسفائن الصواهل . وطلعت العساكر وراء السلطان ، وتفرقت على العدو ، وبذلوا فيهم السيوف ، ودارت عليهم الحتوف . وقتل مقدمهم جنقر . وأحضرت الأسارى من كل جهة . وبات السلطان ، وأصبح راجعا . وبلغه أن دُرْباى ومن معه من التتار النازلين على البيرة هربوا ، وتركوا أزوادهم والمجانيق . فسار ودخل الديار المصرية فى سابع وعشرين جمادى الآخرة (٣) .

وفى سابع وعشرين ذى الحجة سنة ٦٧١ هـ ، تمت فتوح بقية حصون الدعوة ، وتسليمها ، وهى : الكهف والمَيْنَقَة والقُدْمُوس .

وفى شهور السنة المذكورة ، كان بلبوش لما قام عُربان برقة بالزكاة ، أبى إلا جماحا فؤاده ، ونفورا قياده . فتوجه إليه بنو عزّار عطا الله ومقدم ، فقاتلوه وكسروه وأسروه وأحضروه إلى القاهرة . وأخذت فى بلاده أبراج تسميها العربان

---

(١) وتعرف بمخاضة الحمام ، انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٠٥ .

(٢) كذا فى الأصل ، والصواب « نفوسها » .

(٣) جاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤١١ ، أنه دخل قلعته خامس عشر جمادى الآخرة .

بالحصون ، وعدّتها حول السبعين حصنا . وهذه برقة فيها مُدن على البحر الملح ، ولها موان تدخلها المراكب ، وخيولها البرقية معروفة ، وتجلب منها الجمال الجيّدة والأغنام والعسل والشمع والقطران ، وبها الأشجار العظيمة . وأكبر مُدنها المَرج ، ومسافتها من البحر أقل من اليوم . ومن المدن هناك طلميثا ، وأكثر أهلها يهود ، وهناك مرسى بنى غازى .

وفى هذه السنة [٦٧٢ هـ] ، فتح كينوك [١] ، من بلاد الأرمن . وذلك أن أهلها كانوا قد كثر فسادهم وتعرضهم إلى التجار . وكتب السلطان إلى صاحب سيس . فلم تفد المكاتبة . فسيّر إليهم عسكر حلب ، فقتلوهم وأسروهم ، وبلغـ[ـت] الغارات إلى أطراف طرسوس .

وفى هذه السنة ، نُقض أحد أبواب القصر المسمى بباب البحر ، قبالة دار الحديث الكامليّة [٢] ، فظهر صندوق فى حائط وجد فيه صورة من نحاس أصفر على كرسى ، شكل هرم ، ارتفاعه مقدار شبر ، بأرجل من نحاس ، والصنم جالس عليه ، ويداه مرتفعة ، يحمل صفيحة يكون دورها مقدار ثلاثة أشبار . وفى هذه الصفيحة أشكال ثابتة ، الأوسط صورة رأس بغير جسد ، وعليه دوائر مكتوب عليها بالقبطى وبالقلفطيرّيات ، وإلى جانبها فى الصفيحة شكل له قرنان يُشبه السنبلة ، وإلى الجانب الآخر شكل على رأسه صليب ، وآخر فى يده عُكّاز ، وتحت أرجلهما أشكال طيور ، وفوق رؤوس الأشكال كتابة كبيرة [٣] ووجد مع الصنم فى الصندوق لوح من الألواح التى يكتب فيها

---

(١) وكينوك هذه هى الحدث الحمراء التى بناها سيف الدولة بن حمدان . انظر التفاصيل فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤١٧ .

(٢) المنسوبة إلى الملك الكامل بن العادل ، وتأسست سنة ٦٢٢ هـ فى حى مابين القصرين . المواعظ للمقريزى ، ٣١٤/٢ .

(٣) جاءت « كثيرة » فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤١٩ .

فى المكاتب ، فيه كتابة قد تقشط أكثرها ، وقد بلى اللوح ، الوجه الواحد مكتوب بالقبطى فيه اسم الملك يزْجَر ، وفيه طارد لكل سوء ، وفيه بيبرس ، وبقية الظاهر من الكتابة لا يتركب كلامها لأجل ماتقشط . وقيل إن الخط بخّط الحاكم خليفة مصر ، ومضمونُهُ طلسم عمل الظاهر بن الحاكم ، وفيه أسماء الملائكة ، وأكثره تمرس للديار المصرية وثغورها . وقيل إنه وجد كتاب فيه وصية الإمام العزيز والد الإمام الحاكم لولده قال فيه : أوّل الكواكب الحَملُ ، وهو قلب المريخ ، وله القوة ، وهو صاحب السيف ، والمستولى بقوة روحانية على مدينتنا عندما بنيناها ، وقد أقمنا طلسما لساعته ويومه لقهر الأعداء .

وفى سادس عشر من المحرم سنة ٦٧٢ هـ ، وذلك أن الأخبار تواترت بحركة أبغا ملك التتار . فكتب باستدعاء العساكر من الديار المصرية ، ورسم بأن جميع من فى مملكته ممن له فرس ، يركبون للغزاة ، وأن يَخرج أهل كُلّ قرية بالشام من بينهم خيّالة ، على قدر رجال أهل القرية ، ويقومون بكلفتهم .

ومسك ملك الكرج بالقدس الشريف ، لأن بلغه من القصاد حضوره للزيارة ، فأرصد له قوما يعرفون حِليته ، فأمسكوه هو وثلاثة نفر ، وأتوا به الديار المصرية ، فطيب قلوبهم ، وأحسن إليهم .

وفى شعبان من هذه السنة ، رسم السلطان بعمارة جسرين قريبا من الرملة لعبور العساكر ، فعُمرّت بقناطر .

وفى هذه السنة ، جرد الأمير شمس الدين اقسنقر أستاذ الدار صُحبة الملك السعيد ، وتوجه ليلة الثانى عشر من رمضان . ولم يعلم بذلك أحد . ولم يدر نائب السلطنة بالشام إلا وهو وسط الموكب بسوق الخيل . ودخل قلعة دمشق كما يدخل الغُمض بين الأجفان ، أو كما تعود العافية إلى جسد الإنسان .

وتوجّه إلى صفد والشقيف . وعاد إلى مصر ، فوصلها فى الحادى والعشرين [شوال] [١] .

ما سمعنا من قبلهم بملوك	تسبق الريح وفدهم حين يسرى
بينما قيل إنهم فى شآم	وإذا هم يُرون فى أرض مصر
كيف راحوا ؟ وكيف جاءوا ؟ تَرانا	حيرة فى أمورهم ليس ندرى
أتراهم ملائك أم ملوك	فى عفاف وفى اختفاء ونصر

وفى هذه السنة ، رسم السلطان لعيسى بن مهنا بالإغارة ، فوصل إلى الأنبار ، ووجد بها جماعةً من عسكر التتار ، فتوهموا أن السلطان دهمهم ، فعدّوا إلى البر الآخر . واقتتل عيسى وخفاجة ، وانهزم أبغا ناكصا على عقبة خيفة وذعرا .

ومنها أن الغرس بن شاور ، والى الرّملة ، أرسل كتابا يذكر فيه أنه حصل لأهل البلاد مرض وحُميّات من شرب مياه الآبار ، فحضر رجل نصرانى فقال : هذه الآبار قد حاضت كما جرى فى السنة التى جاء التتار فيها إلى الشام ، وأن الفرنج نفذوا إلى قرية تسمى عابود [٢] فى الجبل ، أخذوا من مائها وسكبوه فى الآبار ، فزال الوخم . وفعل ابن شاور كذلك ، فزال الوخم . وكان الماء قد كثر فيها ، فلما سكب فيها من ماء عابود ، نقصت إلى حدّها . وقيل إن هذه الآبار إناث تحيض وآبار الجبل ذكور .

وفى هذه السنة ، سُرقت رؤساء الشوانى من عكا . وهو أنه لما انكسرت الشوانى الإسلامية على قبرس ، طلع الرجّال إلى البر ، فأسرهم الفرنج ، وأرسلوا رؤساء الشوانى الإسلامية إلى عكا ، فاعْتُقلوا بها . وسيرّ السلطان الأمير فخر

---

(١) إضافة من ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٢٧ .

(٢) قرية جبلية بنواحى بيت المقدس ، المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٦١٢ ، والحاشية ١ .

الدين بن المقرى الحاجب إلى صُور لابتيَاعهم ، فتغالى الفرنج فيهم ، وقالوا : هؤلاء جمرة البحار وفُرصة الأعمار . وكانت عدّتهم ستة نفر ، وأودعوهم حبسا حصينا فى قلعة عكا . فأرغب النائب بصفد وهو سيف الدين خطلبا ، الموكلين بهم بالمال حتى دخل إليهم بمبارد ومناشير ، وسُرّقوا من جُب القلعة ، وأخرجوا فى مركب مهيّأ لهم . وكانت لهم خيل واقفة مُعدّة ، فركبوها ، ووصلوا إلى القاهرة . وقامت فى عكا فتنة [١] بسببهم .

وفى هذه السنة ، ورد كتاب صاحب الحبشة واسمهُ مَحْرى ملاك [٢] ، بطلب مطرانٍ . ومحرا أقليم من أقاليم الحبشة ، وهو الأقليم الأكبر ، وصاحبه يحكُم على أكثر الحبشة السِّحِرت . وصاحب البلاد المذكورة يسمى حَطىٌّ ، وهو الخليفة ، وكلّ من ملكها يُسمى بهذا النعت . والطريق إلى أمحرا من مدينة عوانٍ وهى ساحل بلاد الحبشة . وأجابه السلطان إلى ذلك ، وأرسل إليه مطراناً حسب التماسه .

وفى سنة ٦٧٤ هـ ، توجّه عسكر حلب وأغاروا على بلاد سيس ومرعش ، وقلعوا أبواب ربضها . وغرق ربيعة بن الطاهر بن غنّام فى عُبر هناك . فإن صاحب سيس قد قطع الهدايا المقررة عليه ، وخالف شروط الهُدن . فعادت الموادعة منازعةً والهدنةُ أهنةً . فخرج السلطان فى ثالث شعبان من هذه السنة ، ووصل إلى دمشق فى سلخه ، وخرج عسكر الشام فى سابع رمضان سنة ٦٧٣ هـ ، وجرّد عيسى مُهنا بن عيسى وحسام الدين العينتابى إلى جهة البيرة ، فى صورة جاليش العسكر ، فوصلوا إليها . ولمّا وصل السلطان إلى نيرب سرمين ، رحل منه على جهة الدربساك ، ومهّد جوانب النهر الأسود ، وقطعته العساكر والكتائب ، وحمل معه المراكب لأجل التعدية ، ونزل داخل

---

(١) وأضاف المقريزى فى السلوك ، ١-٢ ، ص ٦١٥ : « بين الفرنج » .

(٢) أو محرا ملك ، انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٣٠ .

باب اسكندرونة ، خلف السور الذى كان السبيل هيتوم ، والد صاحب سيس ، قد بناه ، ثم رحل قريب المثقب ، وملكت العساكر جسر المصيصة ، وملكوا المصيصة ، وغلبوا على من فيها ، وقتلوا من وجدوه بها ، وغنم الناس مالا يحصى كثرةً ، وقتلوا من المواشى . ووصل إلى مدينة سيس ، فعدل عنها ووصل دربند الروم . وعاد وعيّد بمدينة سيس ، ونهبت مدينة سيس وأهدمت وأحرقت ، وشُوه منظر صاحبها وهتك ستر ستائره . ووصلت نعوت السلطان إلى أياس ، وتفرقت جيوشه إلى البرزين وآذنه ، وقتلوا وغنموا ، وهرب من الأرمن جماعة ، فغرقوا . ثم وصل السلطان إلى المصِّيصة ، وأحرقها من الجانبين . ثم رحل وعبر على تل حمدون ، وعلى قلعة النُقيرة ، وعانت العساكر فيهما . وخرج من الدربندات ، وفرّق الغنائم ، وما نسى صاحب عَلم ولا ربّ قلم . وعمل القاضى مُحيى الدين بن عبد الظاهر فى ذلك :

ياملك الأرض الذى عَزْمُهُ	كم عامر للكفر منهُ خَرِبْ
قلبت سيسا فوقها تحتها	والناس قالوا سيس لاتنقلبْ [(١)]

وفى شهور سنة ٦٧٤ هـ ، فتح حصن القُصير [(٢)] . وهذا الحصن لم يفتحه صلاح الدين ، وهو لمن يكون بابا روميه ، الذى هو خليفة الفرنج ، وأمره راجع إلى بطرك أنطاكية ، والفرنجية تميّزه ، وكان أهله عند فتح أنطاكية سألوا الهدنة ، فأجيبوا إليها ، فما وقفوا عندها لأنهم أذلاء لصَمغار ومن معه من التتار . وضربوا البشائر على الأصوار ، فأظهر السلطان لكليام [(٣)] النائب بالقصير المُصافاة . وأرسل إليه الأمير سيف الدين الدوادار ، فأظهر غضبا

---

(١) جاءت فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٣٦ ، « ما تنقلب » .

(٢) قلعة جنوبى أنطاكية ، انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٦٢٠ ، والحاشية ٧ .

(٣) سير ويليام (Sir William) ، انظر الحاشية السابقة . وجاء اسمه جيوم Guillaume ، فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٤٤ ، الحاشية ٢ .

بكونه ماخرج للقائه ، وقصد الرجوع . فبلغ ذلك كليام ، فخرج إليه مُسرعا ليسترضيه ، فاستدرجه الأمير سيف الدين فى البُعد عن القلعة بصورة امتناع من العود . ولما وصلوا كارشَهُ ، وتسلّمه واحد بعد واحد من الأمراء يكارشونه ، ويُسلّمون عليه ، حتى أخرجوه عن جماعته ، ولعب السيف بمن كان معه ، وأغلق باب الحصن . وأُتى بكليام إلى السلطان ، وكان شيخا كبيرا . فتوجه به السلطان إلى دمشق ، فمات بها . ورتّب عسكر الحصَار على القصير ، فسلّمه أهلها يوم الأربعاء ثالث وعشرين جمادى الأولى سنة ٦٧٤ هـ .

وفى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة سنة ٦٧٤ هـ ، وصل التتار إلى البيرة وحاصروها ، وكان مُقدّمهم أبطاى . فلمّا بلغ السلطان ، أنفق فى العساكر المصرية والشامية بنفسه ، وأمرهم بسُرعة التجهيز ، وخرج . ولما وصل إلى القُطيفة ، بلغه أن التتار قد وهَنوا وأن حركته قذفت الرعب فى قلوبهم ، ورحلوا . نثنى العنان ، وعاد إلى دمشق وإلى الديار المصرية .

وفى ثامن شوال سنة ٦٧٤ هـ ، جرّد العسكر لغزاة النوبة صُحبة الأمير شمس الدبن اقسنقر المُفارقانى [١] والأمير عز الدين الأفرم ، لأن داود ملكها كان كثر فساده وأخذ مملكة مرتشكر [٢] ابن أخته ، فحضر إلى الأبواب السلطانية مستغيثا ومستصرخا .

فجرّد السلطان الأمراء المذكورين والعساكر وأجناد الولايات والعربان ومرتشكر ابن أخت داود ، ووصلوا إلى الدّوِ [٣] ، فأغاروا على قلعتها ، فقتلوا وأسروا وغنموا . وكان بها قمر الدولة أى صاحب الخيل ، وكان قد وُلّى عوضاً

---

(١) جاءت « الفارقانى » فى التحفة الملوكية لبيبرس المنصورى ، ص ٨٢ .

(٢) وجاء اسمه فى التحفة ، ص ٨٣ ، « مريشكر » ، وانظر كذلك الحاشية (١) فى نفس الصفحة .

(٣) انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٦٢٢ . وهى قلعة حصينة بالقرب من أسوان .

عن نائب داود الذى وسطوه بالديار المصرية ، فأعطوه أمانا ، واستمر على نيابته . وحلف لمرتشكر المتوجه صُحبة العسكر ، والتقوا الملك داود ، وبذلوا فيهم السيف ، ولم ينج منهم إلا من ألقى نفسه فى البحر . وهرب الملك داود ، وأُسر أخوه شنكو . وساقوا العساكر وراءهم ثلاثة أيام إلى أن مسكوا أم الملك داود وأخته . ورُتّب مرتشكر فى البلاد ، وقُرر عليه قطيعة فى كل سنة وهى : فيلة ثلاثة ، زرافات ثلاث ، فهود أناث خمس ، صُهب جياد مائة ، أبقار جياد مستحسنة أربعمائة ، وأن تكون البلاد مشاطرة : النصف للسلطان والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها لاحتمال أن يَطْرُقها عَدّو . وأن تكون بلاد العُلى وبلاد الخيل للسلطان خاصاً ، وهى قدر رُبع البلاد النُوبية ، لقربها من أسوان ، وأن يحمل ما يكون بها من الأقطان والتمر مع الحقوق الجارى بها العادة .

ثم عرض عليهم الإسلام أو القتل أو القيام بالجزية ، فاختاروا القيام بالجزية ، وأن يقُوم كل نفس بالغ بدينار عيناً فى السنة . وعملت نسخة يمين بهذه الشروط . وكانت إقامة العسكر بدنقلة سبعة عشر يوما حتى مهّد البلاد ، وألبس مرتشكر التاج ، وأجلسوه فى مكان داود . ووُجد بكنيسة سوسى من الصلبان الذهب وغيرها أربعة آلاف وستمائة وأربعون دينارا ونصف ، وأوانى فضيات ثمانية آلاف وستمائة وستون دينارا . وكانت عدّة الذى أُحضر من الرقيق سبعمائة نفر . وعادت العساكر سالمةً غانمةً . وأما داود فإنه هرب إلى الأبواب ، فقاتله صاحبها وأمسكه وسيرّه إلى الديار المصرية ، فاعتقله بالقلعة إلى أن مات . وأما أخوه شنكو ، فإنه أسلم ورُتّب فى جملة البحرية . وكان رجلا طويلا تاما حالك السواد . وتمهدت بلاد النوبة من تلك السنة .

وفى ثانى عشر ذى الحجة ، تزوج الملك السعيد ابنة الأمير سيف الدين قلاون الألفى . وكان العقد [١] بالقلعة . وفى حال انقضاء العقد المذكور ، ركب

---

(١) انظر نسخة هذا العقد فى القلقشندى ، صبح الأعشى ، ١٤/٣٠٠ .

السلطان ، وتوجّه إلى الكرك على الهُجن فى جماعة لطيفة . وكان طريقه من بدر تحت جبل يُعرف بنقب الرُّباعى ، وهو جبل عظيم وحجارته رخوة متغيرة الألوان إلى الحُمرة والزُرقة والبياض . وبه قبر هَرون أخى موسى بن عمران . ومرّ على مدائن بنى اسرائيل . ومرّ بقرية تُعرف بالعَذُما ، عُرفت بذلك لأن بها العين التى بجسها موسى بعصاه . ووصل الشوبك ، وتوجه إلى الكرك ، فوصلها فى ثالث وعشرين من الشهر . وأدب بعض رجال القلعة ، وأحضر إليها رجالا غيرهم .

ووصل إلى الأبواب السلطانية وفود الروم وهم : الأمير حسام الدين بنجار ، وبهاء الدين ولده ، وأولاده وجماعة من الأمراء وعدتهم اثنا عشر أميراً ، فتداركهم السلطان ، وركب من الكرك ووصل إلى دمشق فى رابع عشر المحرم سنة ٦٧٥ هـ . ووصل بعدهم الأمير سيف الدين جندربك ، صاحب الأبلستين [١] ، والأمير مبارز الدين الجاشنكير ، فتلقاهم بنفسه ، وأحسن إليهم ، ووصَّل حريمهم وأولادهم إلى الديار المصرية ، وتوجه إلى حلب . وبلغه وصول التتار إلى كوكصوه ، وبقى بينهم وبين العسكر النهر ، وخالوا بين العسكر وبين قلعة نكيدة . فرجع السلطان إلى عين تاب ، وأمسك التتار شرف الدين ابن الخطير ، وعفوا عن السلطان غياث الدين ، وسلّموه إلى الصاحب والبرواناه . وعاد السلطان إلى دمشق ، ومنها إلى مصر . ولما وصل ، أمر بتجهيز العرض للعب القبق . ودخل الملك بيته ، وكان مهما مشهودا .

وفى شهور سنة ٦٧٥ هـ ، توجه السلطان إلى غزوة الروم بالأبلستين ، وكان وصوله إليها فى العشرين من رمضان . واستصحب معه العساكر ، وسار لا يقيم إلا بمقدار ما يتزّيدُ الزائر من الأهبة أو يتزوّد الطائر من النغبة [٢] . وتقدم

---

(١) وهى مدينة ببلاد الروم اسمها الحالى البستان وهى قريبة من أفسوس ، مدينة أهل الكهف ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ٩٤/١ .

(٢) يقال نغب الطائر أى حسا من الماء . والنغبة جمعها نغب وهى الجرعة .

الأمير شمس الدين سنقر الأشقر جاليشا ، فوقع على ألف فارس من التتار مُقدمهم كراى ، فانهزموا . ثم وصل الخبر بأن العدو [١] قد قربوا وثابوا ووثبوا . ورتب السلطان الجيش اللجب كما يجب ، وأراهم من نوره ما لا يخفى على بصر ولا يحتجب . وكان العدو ليلته تلك بايتا على النهر الأزرق ، فأقبل المسلمون ، وترتب المغل أحد عشر [٢] طُلباً ، كُلّ طلب يزيد على ألف مقاتل . وعزلوا عسكر الروم عنهم ، وجعلوهم طُلباً واحداً بمفرده . فانصبّت الخيل عليهم انصباب السَيل ، وبطلت الحيلة منهم وبقى الحَيْل ، فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجُلٍ واحدٍ ، وعاجت المنايا على نفوسهم وعاجلت . وللوقت خذلوا وجدّلوا ، ولبطون السباع وحواصل الطيور حُصِّلُوا . وثاب السلطان إليهم ووثب عليهم ، وانهزمت منهم جماعة يسيرة . وعَدَل السلطان إلى المنزلة التى كان العدو نازلا بها ، فنزلها ، وإلى أموالهم فتموّلها ، وأسر منهم جماعة لم يمسّهم أذى . وأسر من الأمراء الروميين : مهذب الدين بهلا [٣] زنكى بن البَرواناه حاكم الروم ، وولد أخته ، والأمير نور الدين بن حاجا ، والأمير قطب الدين أخو الأتابك ، وسيف الدين سنقرجاه السيواسى ، ونُصرة الدين صاحب سيواس ، والأمير كمال الدين العَارض بالروم ، وقريب البرواناه ، وحسام الدين كياوك ، وعلاءً الدين على بن البرواناه ، وسيف الدين بن على شير التركمانى . ومن أمراء المُغل : يزيرك [٤] صهر أبغا ، وسُرطق قرابته ، وجنوكر ، وبردكه ، وتُماديه . والذين حضروا فى الأحسان : الأمير سيف الدين جاليش ، النائب بالروم ، وهو أمير دار – يعنى أمير العدل للمظالم – وظهير الدين مُتوّج ، مُشرف الممالك ومرتبته دون الوزارة ،

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل الصحيح هو « الأعداء » . وانظر نفس الخبر فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٥٨ .

(٢) جاء أنهم « اثنا عشر طلباً » فى زبدة الفكرة ، نفس المرجع ، الورقة ٨٣ .

(٣) جاء اسمه « علاء الدين بكلازنكى » فى الزبدة ، الورقة ٨٤ .

(٤) كذا فى الأصل ، جاء اسمه « زيرك » فى زبدة الفكرة ، الورقة ٨٤ .

والأمير نظام الدين أوحد بن شرف الدين بن الخطير وأخوته ، وحسام الدين قاضى قضاة الرُوم ، ومظفر الدين جَحّاف ، وأولاد الأمير ضياء الدين بن الخطير ، وسيف الدين كجكا الجاشنكير ، ونور الدين المنجنيقى ، وأولاد رشيد الدين صاحب ملطية ، وأمير على صاحب كركر . وأما البرواناه ، فإنه شمرّ الذيل ، وامتطى هربا . وأخذ البرواناه السلطان غياث الدين ، والصاحب الوزير فخر الدين وزوجته ابنة غياث الدين ، صاحب أرزن الروم . وتوجهوا إلى تُوقات [١] . وزوجته هذه تسمى كرجى خاتون ، ولها أربعمائة جارية ، وكانت أمها ملكة الكرُج . وتوقات مكانٌ حصين مسافة أربعة أيام من قيسارية .

قال المصنفّ : واتفق حضور أبغا بعد رحيل السلطان إلى موضع المعركة ، وشاهد جميع القتلى من المُغل ، ولم يكن فيهم أحد من العساكر الإسلامية ، فغضب ، وأيقن أن البرواناه واطأ عليهم المسلمين ، فأخذه من المكان الذى آوى إليه وعنّفه على ما بدا منه من المواطأة ، ثم قتله [٢] شر قتلةٍ .

وكان رحيل السلطان يوم السبت حادى عشر الشهر ، ونزل قريبا من القرية المعروفة بِرُمّان ، وهى قريب الكهف والرقيم ، ويطوف بها جبال كأنها أسوار . ومررنا على قرية أوتراك ، ومنها على حصن سمندو ، وأشرفنا على خان قرطاى بعد ذلك ، وهو مبنى بالحجر المنحوت الأحمر بناءً محكما ، ولهُ مغَلّات متسعة ، ودواوين متفرقة ومُجتمعة . ونزلنا على قريب من عَسيب ، وفيه قبر امرىء القيس ، وهو الذى يقول فيه [٣] :

---

(١) توقات بلدة واقعة بين قونية وسيواس ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٨٩٥/١ .

(٢) انظر حبر مقتله فى الزبدة ، الورقة ٨٦ . وكان مقتله فى آحر صفر من سنة خمس وسبعين وستمائة .

(٣) ديوانه ، ص ٣٥٧ .

أجيرتنا [١] إن الخطُوب تنُوبُ وإنى مُقيمٌ ما أقام عَسيبُ
أجيرتنا [١] إنّا مُقيمان [٢] هاهنا وكل غريب للغريب نسيبُ

ويعلوه جبل أرجاس ، وهو الذى يُضرَب المثل بتساميه . وركب السلطان فى زمرته وذوى أمره وإمرته ، وخرج أهل قيسارية كافة ، فتلقوّهُ . وكان دهليز غياث الدين صاحب الروم وخيامه قد نُصبت فى وطأة كيخسُروا قريباً من مناظر ملوك الروم . وترجّل فى الركاب الشريف كل أمير ومأمور ، وضربت نوبة آل سلجوق . وشرع السلطان فى انفاق اللّهى ، وعيّن لكل جهة شخصا ، وقال : « أنت لها » . واستناب الأمير سيف الدين جاليش ، وكتب إلى أولاد قرمان يُحرضهم على الحضور . وركب يوم الجمعة سابع عشر ذى القعدة ، وعلى رأسه جتر ابن سلجوق ، فشاهد الناس منه صاحب القبة والسبع . ودخل قيسارية ، وجلس فى مرتبة السلطنة فى أسعد وقت . ونال التخت بحلوله أعظم بخت ، وخُطب له فى جوامع قيسارية ، وهى سبعة جوامع . وحَصل لسُليمان البرواناه وزوجته كل تعكيس . واستولى السلطان على مُلك سليمان وعرش بلقيس . ورحل منها فى الثانى والعشرين من ذى القعدة ، وكم فى ممالكه كرسُىّ مملكةٍ هو آية ذلك الكرسى ، وكم له فتحا وكلُّه والحمد لله فى الإنافة الفتح القدسى . وسار السلطان ، واختار نهر قَزَل صُو ، ومعناه النهر الأحمر ، وهو بعيد المُستقى . ونزل بواد فيه مرعىً ، ثم رحل إلى صحراء قراجا قريبة من بازار بلو ، وهذا البازار هو الذى كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض . وسار منها إلى وطأة أبلستين ، مكان المعركة وقال رَجُلٌ ممن عندَهُ عِلْمٌ مِن أَهل الكتاب : « أنا عددت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين نَفرا [٣] ، وضاع

---

(١) جاءت « أجارتنا » فى الزبدة ، الورقة ٨٤ ، وهى لفظ الديوان .

(٢) جاءت « غريبان » فى الزبدة ، الورقة السابقة .

(٣) جاء فى ابن عبد الظاهر . الروض ، ص ٤٧٠ ، « من المغل » بعد كلمة « نفرا » .

الحساب » ، وعاد السلطان وعَدى النهر الأزرق ، وسار إلى قريب حارم . وتوافد التركمان ، وحضر أمراء بنى كلاب ، وألقى عصا التّسيار إلى أن وصل دمشق .

ذكر وفاته إلى رحمة الله بمدينة دمشق

لما دخل دمشق فى الخامس من المحرم [سنة ٦٧٦ هـ] ، ونزل بقصره الأبلق بالميدان الأخضر ، معتقدا أن الدنيا له حَصلت ، والبلاد التى حلها ركابه عنه ما انفصلت ، وأن سعدهُ استخلص له الأيام وأصفاها ، والممالك شرقا وغربا ولو لم يكن بها غيره لكفاها ، وإذا بالمنية قد أنشبت أظفارها ، والأمنية وقد وضعت حربها أوزارها ، والعافية وقد شمّرت الذيّل ، والصحة وقد قالت لطبيبه « أهلك والليل » ، ورماح الخِطِّ وقد قالت لأقلام الخّط « أصبت فى لبس الحداد من المداد » ، وقالت عند شق الجيوب « نحن أحق منك بهذا المراد » ، فآهاً لها فجيعة ما قدر أحد يتأوه من أجلها ، ومصيبة ما مكنت المصلحة الحاضرة من إظهار ما يجب لمثلها .

وكان ابتداء مرضه ليلة السبت الخامس عشر من المحرم . ونزل وهو مُلتاث ، وأصبح وليس عنده انبعاث . وقبضه الله إليه بعد الزوال من يوم الخميس سابع وعشرين من المحرم . وحُمل إلى قلعة دمشق فى تلك الليلة .

وأول فتوحه كان قيسارية ، وآخر ما فتحه قيسارية . وأول جلوسه فى مرتبة السلطنة يوم الجمعة سابع عشر ذى القعدة . وآخر جلوسه فى تخت السلطنة السلجوقية يوم الجمعة سابع عشر ذى القعدة .

واستمر بقلعة دمشق إلى أن ابتاع وَلَدُه الملك السعيد ، دار

العقيقى [١] ، وبناها له تُربةً ، وحُمل إليها ليلة الرغائب من شهر رجب [٢] .

قال المؤلف : حدّثنى من أثق إليه ، أن السلطان الملك الظاهر لما عاد إلى دمشق مظفراً منصوراً ، وبما أوتى من النصرة جذلا محبورا ، جمع الأمراء بالميدان الأخضر لشرب القمز . وكان بمدينة دمشق شخص من سلالة بنى أيوب يسمى الملك القاهر ، لا وجه له ولا وجاهة ، ولا قدر ولا نباهة ، إلا أنه كان يُسمى بالملك حفظا لذكر العادة ، ولم يكن على مخايله شىء من السعادة . وأن السلطان لغيرته من بقاء من يشاركه فى هذه الأسمية أراد إعدامه ، وسقيه سقيةً تدنى إليه حِمَامه ، فأحضره فى مجلس القمز ، وأمر بسقيه . فعُملت له فى كأس ، وجىء به ، فشربه وأحس بما فيه ، فقام لوقته وحَمل نفسه إلى داره ، فمات بها . وغفل الساقى عن كأس السقية ، فاختلط بأوانى الشُرب ، فملأه على أثره ، وناوله السلطان ، فشرب . فكان قتله بما قتل به ، وموته بما دبّره على غيره ، ودين بما دان ، وأبلاه الجديدان . والله أعلم بصدق هذا النقل ، فإنى لم أشاهده عيانا . فسامحه الله ورحمه ومنحه رضوانه وكرمه .

وأخفت الأمراء موته عن الناس . وأشيع أنه مُستمر المرض . فإن الأخبار وردت بحضور أبغا بن هولاكو البلاد ، فتوقفت العساكر عن الرحيل إلى الديار المصرية أياما إلى أن وردت الأخبار أنه إنما جاء إلى الأبلستين ، موضع المعركة كما ذكرنا ، وعاد إلى بلاده بعد غارته على التركمان . فعند ذلك أمر الأمير بدر الدين العساكر بالرحيل إلى الديار المصرية ، ورتب الأطلاب والخزائن والموكب على عادته ووضعه ، وحُملت محفّة فيها مملوك من المماليك ، والناس يظنون أنه

---

(١) داخل باب الفرج تجاه المدرسة العادلية بدمشق ، وقد اشتراه الملك السعيد بستين ألف درهم ، وجعلها مدرسة وبنى بها قبة . انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٦٤٦ .

(٢) وجاء فى ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٧٥ ، « من سنة ست المذكورة » ، أى سنة ٦٧٦ هـ .

السلطان مريض والأطباء تحضر إليها للخدمة ، والأشربة تُحمل والمزاور والمصَاليق [١] تعمل ، والسناجق والعصائب والجمدارية حافة بالمحفّة . والأمراء فى منازلهم ، ولم يتجاسر أحد ممن له علم بموته أن يتفوّه بذكره ، ولو أمكن لم يُخطره بفكره . وبقى أكثر الناس من ذلك بين الشك واليقين ، غير مكذبين موته ولا مصدقين ، إلى أن وصلوا إلى الديار المصرية فى العشر الأول من ربيع الأول سنة ٦٧٦ هـ . وحُملت الخزائن إلى القلعة سالمة محفوظة .

وكان للملك الظاهر من الأولاد ثلاثة : الملك السعيد [٢] ، والملك نجم الدين خضر ، وبدر الدين سلامش ، غير البنات [٣] .

* * *



(١) جاءت « المساليق » فى التحفة الملوكية ، ص ٨٦ .

(٢) وولد فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بمنزلة العش من ضواحى القاهرة ، من بنت حسام الدين بركه خان الخوارزمى .

(٣) ذكر المقريزى فى السلوك ، ١-٢ ، ص ٦٤١ ، أن عددهن سبع إناث .

الملك السعيد ناصر الدين بركة خان
ولد الملك الظاهر

كان جلوسه فى ربيع الأول سنة ٦٧٦ هـ ، وعمره يومئذ عشرون سنة . وكان جميلا جسيما وضيا وسيما ، ولم تكن دارت لحيته بعد إلا أنه كان حَصر اللسان ، قصير العبارة ، منقطع الحجة ، إذا سمع خطابا لا يحير جوابا .

واستقر الأمير بدر الدين الخزندار نائبا على حاله أياما قلائل ، وتوفى . وكانت المدة بينه وبين أستاذه شهراً وأياماً . واختلف الناس فى موته ، فقيل مات حتف أنفه ، وقيل سقاه الأمير شمس الدين اقسنقر المفارقانى أستاذ الدار طلباً لمنصبه ، لأنه استقر فى النيابة بعده . وارتجعت مماليك أيبك الخزندار إلى المماليك السلطانية ، فمنهم من أُضيف إلى البحرية ، ومنهم من نقل إلى الخاصكية بقاعدة الأعمدة . وصار فى قلوبهم من المفارقانى ما فيها لاتهامهم إيّاه بقتل مخُدومهم ولاستقلاله بمنصبه .

وأما الملك السيعد فكان – كما ذكرنا – عديم البصيرة ، ضعيف الرؤية ، مضطرب الفكرة ، يميل مع كل مستميل ، ويحول إذا استحيل ، واستحوذ عليه مماليكه الخاصكية الصغار استحواذا أفسد نظام دولته ، وغيرّ خواطر الأكابر من أمراء مملكته . ثم أوهَموه منهم ، ونفرّوه عنهم ، وحَسنّوا له إمساكهم . فكان أول من أمسك خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركتخان . ثم بعده ، الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، الذى كان والده يعدّهُ لمهمات الأمور ، ويشركه فى الأسرار التى لا تؤمن عليها الصدور ، وتعب فى إحضاره من التتار بأنواع الحيل ، وفداهُ بابن صاحب سيس . وأمسك الأمير بدر الدين بيسرى ، وكان من والده بمنزلة الولد من الوالد والزند من الساعد . ثم أنهم خيّلوه من الأمير شمس الدين المفارقانى ، نائب السلطنة ، فأمسكه وقتله ، لأن مماليك الخزندار اتفقوا عليه مع

بعض الخاصكية ، وقالوا إنه يطلب الملك لنفسه . ولما كان يوم السبت الحادى والعشرين من ربيع الأول ، أمر بإحضاره إلى باب السر [1] ، فامتنع من الدخول لأنه أحس بما قصدوا به . فأُخذ غصباً وجُرجر سحباً ، ومضى به إلى داخل الرحبة الجوّانية ، ونُتف شعر لحيته ، وكانت وافرة ، فلم يتركوا فيها شعرة واحدة ، وقُتل على مكانته ، وحُمل على لوح ، وأُنزل من القلعة ، ودفن . وولى النيابة بعده الأمير شمس الدين سنقر الألقى المظفرى ، فكرهه الخاصكية لأنه كان ذا عقل وسكينة وتُؤدةٍ فى حركاته ، فلم يكن ينقاد إلى آرائهم ، ولم يوافقهم على أهوائهم . فصاروا يختلقون له ذنوبا ، ويرتبوّن عليه عيوبا ، واتهموه بأنه يقصد إقامة الدولة المظفرية ، ويرشح خوشداشيته إلى المناصب العالية ، وأنه وَلى علم الدين سنجر الحموى أبو خرص نيابة السلطنة بصفد وزاده أريحا وأعمالها على أقطاعه ؛ ولكونه كان رجلا مسالماً ، لطف الله به ، فعزل سالماً . ووُلى النيابة بعده الأمير سيف الدين كوندك السعيدى ، وكان السلطان يؤثره ويُدنيه ، وله به إلمام من جهة كونه كان معه فى المكتب ، فرشحهُ للنيابة ، وقدمه على تلك العصابة .

وكان الباعث على انتقاض دولته ، واضطراب مملكته وخلعه عن مرتبته ، وذلك أنه لما قبض السلطان على الأمراء والأكابر ، وفوض أمره إلى المماليك الأصاغر ، أوجس الأمير سيف الدين قلاون الألفى خيفةً على نفسه ، واستَشعر الوحشَة بدلاً من أنسه . ثم أن والدة السلطان شفعت إليه فى أخيها بدر الدين محمد بن بركتخان ، وفى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيسرى ، وشفع فيهم الأمراء أيضاً ، فأفرج عنهم . ولما رأوا أحواله على غير نظام ، اتفقوا على خلعه . وفى أثناء ذلك أشار خواصه عليه السفر إلى الشام .

---

(١) وفى المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٦٤٤ ، « باب القُلّة » .

ولما توجه السلطان فى شهر ذى القعدة سنة ٦٧١ هـ إلى الشام ، واستناب بالديار المصرية الأمير عز الدين الأفرم ، والأمير علاء الدين أقطوان الساقى ، وعند وصوله إلى دمشق ، جردّ العساكر فرقتين : فرقة إلى جهة قلعة الرُوم ، صُحبة الأمير بدر الدين بيسرى ، وفرقة إلى جهة سيس ، صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفى . وعكف السلطان على لهوه ولعبه ، وجرت نقائض يطول شرحها من سوء التدبير وفرط التبذير ، واستيلاء المماليك الخاصكية على الدولة ، وتقديمهم الأصاغر وإقصائهم الأكابر ، وإهمال السلطان النظر فى أحوال العساكر ، ووقع بين الأمير سيف الدين كوندك نائب السلطنة وبين الأمير حسام لاجين الزينى ، وكان عند السلطان من أعظم الخواص . واتفق الأمير سيف الدين كوندك مع الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، وانحاز إليه ، وأكد الود بينهما زواج كوندك المذكور بابنة كرمون أخت زوجة قلاون الألفى ، لأن الملك الظاهر كان طلبها ، فجهزّها إليه الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، فأقامت عنده مُدة ، وبانت عنه . ولما طلبها الأمير سيف الدين كوندك ، جهزها جهازاً حسناً ، وحُملت إلى الأمير سيف الدين كوندك ، وهو نائب السلطنة . ولمّا نشأ بين كوندك وبين لاجين الزينى الشنآن الذى ذكرناه ، صار المماليك السلطانية فرقتين : طائفة مالت إلى لاجين الزينى ، وطائفة إلى كوندك . وصار كل منهما يؤثر نفع الجماعة المنحازة إليه ، ويتنافسان لهما فى الإقطاعات والزيادات ، وثارت الفتن لذلك . ولمّا عادت العساكر من جهة سيس ، واعتزل كوندك وطائفته ، وخرج إلى عذرا وضمير خارج دمشق ، وأرسل إلى الأمير سيف الدين قلاون والأمير بدر الدين بيسرى ، وهما فى أثناء الطريق يخبرهما بأن السلطان ولاجين الزينى قد اتفقا على إمساكهما وإمساك من معهما من الأمراء الأكابر ، وإخراج إقطاعاتهم لجماعة مُعينة من الخاصكية ، فتنكروا ذلك وداخلهم الوهم لما يعلمونه من ميل السلطان وانفعاله ورجوعه إلى الصغار فى

غالب أحواله ، ولما قدّمه من الإساءة إلى الأكابر حتى إلى خاله . ولما وصلوا عذرا وضُمَير تلقاهم كوندك ، وحذّرهم ، فاتفقت آراؤهم جميعا على الإقامة بالمرج وألا يدخلوا دمشق إلى أن يتبين لهمُ الأمر ، وكتبوا إلى السلطان بطلب لاجين الزينى ، وإرساله إليهم ليقع الحكم بينه وبين كوندك فيما شجر بينهما ، فلم يُسيرهُ إليهم ، بل كتب إلى من كان معهم من الأمراء الظاهرية والمماليك السلطانية يستدعيهم إليه ويأمرهم بسرعة القدوم عليه . ولم يكتب إلى أحد من الأمراء الأكابر كتابا ، فأُمسك القاصد بهذه الكتب ، وأحضر إلى الأمراء ، فتحققوا جميع ما قيل ، وتيقّنوه وأظهروا النفار الذى كانوا أبطنوه . ورحلوا من المرج حَمّية إلى جهة داريا بالقرب من الجسور . فأرسل السلطان إليهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وشمس الدين سنقر التكريتى أستاذ الدار ، بأن يدخلوا إليه ويعطفوا عليه ، فأبوا إلا نفارا وجماحا ، وغُدّوًا فى الشقاق ورواحا . ورحلوا لوقتهم من داريا إلى الكسوة ، فاستشعر الملك السعيد الخيفة منهم ، وأرسل إليهم والدته فى محفّة لتسترجعهم وتستعطفهم ، فلم يفد ذلك ولا أجدى نفعا . ثم ساروا يطوون المراحل إلى الديار المصرية ، فوصلوا إلى القاهرة فى ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ . وعسكروا تحت القلعة بالقُرب من الجبل الأحمر . وأغلقت أبواب القاهرة ، وحضر إليهما النائبان اللّذان بالقلعة ، وهما عز الدين الأفرم وعلاء الدين أقطوان ليتحدثا معهم فى الصلح والدخول إلى القاهرة . وأشار كوندك بالقبض عليهما ، فأمسكا ولم يُمكنا من الطلوع إلى القلعة . وأخذ الأمراء فى محاصرة القلعة وبها سيف الدين بلبان الزريقى وبعض المماليك السلطانية فى عدة غير كثيرة .

ولما يئس السلطان من رجوعهم ، جمع الأمراء الذين عنده والعسكر الشامى والمصرى والعربان ، وأنفق فيهم ، ورحل من دمشق متوجها إلى الديار المصرية فى إثر الأمراء . ولما وصل إلى غزّة ، تفرقت العُربان . ولما وصل إلى

بلبيس أعطى العساكر الشامية دستورا ، ولم يبق معه إلا شرذمة قليلة من المماليك السلطانية ، وركب قاصدا القلعة . وبلغ الأمراء أنه واصل من خلف الجبل الأحمر ، فركبوا إلى هناك ، وحضر هو من الطريق المعروفة ، وصَادفه ضباب شامل فى بكرة ذلك النهار قد غطى الأبصار ، فلم يشاهد أحد الفريقين الآخر . فطلع السلطان إلى القلعة على حاله ، وحقن الله الدماء . ولما سمع الأمراء بطلوع السلطان إلى القلعة ثنوا الأعنة إليها ، وجدّوا فى حصارها [1] .

وحدثنى بعض الثقات أن السلطان لما طلع إلى القلعة ، حضر إليه الأمير سيف الدين الزريقى الذى قلنا إنه كان مُقيما بالقلعة ، ليُقبِّل الأرض بين يديه ، شتمه لاجين الزينى وعنّفه وأغلظ له فى الكلام . فقال له الزريقى : « هذا جزائى لكونى حفظت لكم القلعة والخزائن إلى أن حضرتم » . ونزل من القلعة إلى الأمراء ، وأخذ المماليك الذين كانوا فى القلعة ينسلون واحدا بعد واحد . ولما رأى السلطان أنه قد أسلمه رهطه ، أرسل إلى الأمراء يطلب الأمان ، وجعل الحكم فيما يرونه ، وسأل أن يكون له الكرك وأعمالها ، فأجابوه إلى ذلك . وللوقت خرج من القلعة ، وسُفّر إلى الكرك صحبة بيدغان الركنى وجماعة من المماليك يوصلونه ، وذلك فى آخر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ . وكان والده قد ادخر بها أموالا جزيلة وذخائر عظيمة ، كأنه علم بصدق حدسه وقوة نفسه أن مآل أولاده إليها يؤول ، وأن حالهم بعد مماته سريعا تحول . فشرع الملك السعيد فى إنفاقها وتبذيرها . وكانت وفاته فى سنة ٦٧٨ هـ [2] .

* * *

(١) ورد فى المقريزى ، السلوك ، ١-٢ ، ص ٦٥٤ ، أن الحصار استمر مدة أسبوع .

(٢) أفاد ابن كثير فى البداية والنهاية ، ٢٩٠/١٣ ، أنه توفى « بالكرك فى يوم الجمعة الحادى عشر من ذى القعدة [سنة ٦٧٨ هـ] ، ويقال إنه سم ، والله أعلم » .

الملك العادل بدر الدين سلامش بن الملك الظاهر

اتفق الأمراء على سلطنته عند خلع أخيه فى ربيع الآخرة ، وخلع فى شهر رجب منها . فكانت مُدته ثلاثة أشهر وأياما . وكان أصغر أولاد الملك الظاهر سناً . ولما جلس ، ضُربت بأسمه السّكة ، وخطب له ، واستقر الأمير سيف الدين قلاون الألفى أتابكا ، ومُدبراً للمملكة ونيابة السلطنة .

وأشار عليه الأمراء بالاستقلال بالسلطنة ، ففعل ، وأُخرج سلامش من القلعة ، وسُفّر إلى الكرك ، وأقام بها إلى أن أحضر وأخاه منها على ما سيُذكر .

* * *



الملك المنصور سيف الدين قلاون

كان جلوسه بعد خلع الملك العادل فى شعبان سنة ٦٧٨ هـ ، ووفاته سنة ٦٨٩ هـ ، فكانت مدته إحدى عشرةَ سنة .

ولما جلس أمرَ ونَهى ، ورتب قواعد الدَّوْلة ، وشرع فى إمساك الأمراء الظاهرية الذين أثاروا تلك الفتن . وذكر البحرية الصالحية ، فأنعم عليهم وأَحْسَن إليهم ، وجمعهم بعد تفرّقهم ، ورفعهم بعد ضعتهم . وأمّر من تجب إمرته ، وقدّم من ينبغى تقدمته ، ورتّب النياب [1] بالقلاع والحصُون ، وساس السلطنة سياسة اقتضت قوامَها ، وأعادت نظامها . والمشار إليه كان أولاً من مماليك الأمير علاء الدين قراسنقر الكاملى ، وارتجع بعد وفاته إلى مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، هو وجماعة من خُوشداشيّته ، منهم بيبرس العلائى ، وسنقر الأشقر ، وسنقر الرُّومى ، وسكز ، وبلبان الكريمى ، وصاروا فى جملة البحرية ، وجرت لهم فى دولة المُعز الخطوب التى تقدم ذكرها . وتنقلت به السعادة إلى السلطنة ، ونظر فى أحوال مماليكه ، ونقلهم إلى الإمرة على درجاتهم ، فمنهم من ولّاه نيابة السّلطنة بالديار المصرية ، ومنهم من أرسله إلى الممالك الشّاميّة ، ومنهم من انتقل بعد وفاته إلى السلطنة .

لما أرسل السلطان أولاد الملك الظاهر إلى الكرك ، اشترط عليهم أنهم لا يتعرّضون إلى ماعداها من البلاد ، ولا يمدون أيديهم إلى الأسباب التى توجب الفساد ، فاجتمع إليهم من تَسَلّكَ من المماليك الظاهرية ، ومن هَرب إليهم من الديار المصرية ، وتعرضوا إلى اللعب ، وخرجوا عما يجب ، وأخذوا الشوبك والصّلت والبلقاء ، وترادفت رسلهم إلى البلاد الشامية يلتمسون أخذْها ، وكل

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل المقصود النواب جمع نائب .

ذلك يبلغ السلطان وهو يُغْضِي . ولمّا بلغه أنهم سيّروا إلى النائب بدمشق يرومون أخذها ، جهّز إليها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، فوصلها فى ذى الحجة سنة ٦٧٨ هـ ، فسوّلت لَهُ نفسه الاستبداد ، وخرج عن الطاعة ، وأبدى العناد ، وسمى رُوحَه بالسلطنة ، ولُقِّب بالملك الكامل ، وكاتب النواب بالحصون ، وثارت الفتن ، واختلفت الآراء ، وتشعبت الأهواء . فجهّز السلطان من الديار المصرية عسكراً صُحبة الأمير علم الدين الحلبى الصالحى ، والأمير بدر الدين الفخرى أمير سلاح . وعند وصولهم إلى غزّة صَادفهم وصول الأمير بدر الدين الأيدمرى من جهة الشوبك بمن معه من العسكر ، لأن السلطان كان قد جرّده إليه لأخذه من الملك المسعود بن الملك الظاهر [1] . فأخذه ، واجتمع المشار إليه بالأمراء ، واتفقوا جميعا ، وجرد إليهم سنقر الأشقر جيشا من دمشق صحبة الأمير بدر الدين بجكا العلائى ، فالتقيا على غزة ، وكسرتهم العساكر المصرية ، وتبعوهم إلى الكسوة . وخرج سنقر الأشقر بعسكر دمشق وحماه وحلب ، ومن جمعه إليه . ولمّا اصطفت الصفوف ، حمل الأمير علم الدين ، هو ومن معه ، على سنقر الأشقر ، فكسروهم ، وهزموهم ، ونجا بنفسه ، ولجأ إلى صهيون ، وتفرقت جموعه . وكانت مُدّته بدمشق أربعين يوما . وكاتب أبغا هولاكو ، وأرسل قُصّاداً إلى ولده الذى هناك ، فإنه لما كان ببلاد التتار ، تزوج منهم وأولد أولادا ، وأقام بعضهم بعده بتلك البلاد ، فأرسل يستدعيهم إلى البلاد الإسلامية ، ويَحُضّهُم على قصد الديار الشامية . فجمع أبغا الجُمُوع ، وتجهّز وتأهب لقصد البلاد . وتواترت الأخبار أنه أرسل أخوه منكوتمر بالعساكر ، وأقام هو بالخابور . وعدّت التتار الفرات فى جمعٍ عظيمٍ ، وجيوش كأنها قِطَعُ الليل البهيم . فعند ذلك تجهز السلطان للقائهم ، وأمر العساكر بالتأهب . وخرج

---

(١) الملك المسعود نجم الدين خضر ابن الملك الظاهر . انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٣ ، ص ٦٦٩ .

السلطان فى ذى الحجة سنة ٦٧٩ هـ ، ولما وصل إلى منزلة الروحين
اللجون فى زمن الربيع ، أقام بها مدة شهر إلى أن تحققت الأخبار ، وتيقن مجيء
التتار ، فأمر بالرحيل إلى جهة دمشق ، فأقمنا بها مدة يسيرة ، وخرج عشية
نفر من التركمان المقيمين بعنيتاب [١] متحرمين إلى أقجادربند . وكان من جملتهم
جلتار أمير آخور أبغا ، فوقع بهم التركمان ، فقتلوا أحدهم ، انهزم البَاقُون ،
وأخذوا جلتار وأحضروه إلى السلطان ، فسأله عن أخبار التتار ، فأخبره بحقيقة
أمرهم ، وأن عِدَّتَهم ثمانون ألفا بحكم أن أبغا جرّدَ من كل عشرة فوارس ثمانية .
فلمّا سَمِعَ السلطان ذلك أعظمهُ ، وأخلص لله نيّتهُ ، ورحل من مرج عذراء إلى
جهة حمص . وراسل الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، ولاطفه وأذكره قديم
الصُحْبةِ والخوشداشيّة ، وما يجب عليه من حقوق الملّة الإسلامية ، وقال له :
كيف تكون قد أفنيت عمرك فى الإسلام ، ولما تقاذفت بك الأعوام ، ونادى
داعى الحِمام ، تجاهد المسلمين مع التتار ، وتميل عن دينك إلى الكفار ؟
وفاوضه فى ذلك ومثله ، فأرسل المذكور من جهته ثقة [٢] ليستحلف السلطان
أنه لايؤذيه بيدٍ أو لسانٍ ، وأن يكون له الخيار والتصرف فى نفسه كما يختار .
فأجابه السلطان إلى مُراده ، وحَلف له بحضور قصّاده . فحضر إلى المُخيّم فى
ثانى عشر رجب سنة ٦٨٠ هـ قبل الوقعة ، واستبشر المسلمون بحضوره ،
وقويت قلوبهم بقدومه ، ولِأنه كان عونا عليهم ، فصار عونا لهم مع ما له من
السمعة المذكورة ، والمواقف المشكورة . وحضرت بطاقة النواب بشيزر بوصول
التتار . وحضر الكشّافة ، وأخبروهُم بمعاينتهم إيّاهم حقيقة . فركب السلطان
بنفسه ، ورتب الجيش ميمنة وميسرة وقلبا . وصار يستقرىء أحوالهم طُلباً
طُلباً ، ويركب يتفقدهم بنفسه باكراً وعشية ، ويُطيّبُ خواطرهم ، ويعدهم

---

(١) وتكتب أيضا عين تاب ، مدينة بالشام شمال منبج ، والنسبة إليها « عينتابى » أو « عينى » .
(٢) أى إنسان يعتمد عليه ويؤتمن .

بالخيرات ، ويرغبهم فيما أعدّ الله للمجاهدين من المُجارات . ولمّا كان بكرة الخميس رابع عشر [(١)] سنة ٦٨٠ هـ ، أقبل التتار بأطلاب كأمواج البحار ، وَكراديس إذا تأملّها الطرف يَحارُ . وكان فى الميمنة الإسلامية الأمير بدر الدين بيسرى، والملك المنصور صاحب حَماه ، والأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى ، وآل فضل ، وآل مرى ، وغيرهم من العربان فى رأس الميمنة . وفى الميسرة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح ، والأمير علم الدين الحلبى ، ومن معهم ، والتركمان ، وعسكر حصن الأكراد . وفى رأس الميسرة الأمير حسام الدين طرنطاى مع جماعته ، وبعض الأمراء فى الجاليش ، والسلطان فى القلب ، ونحن معه تحت السناجق . فلما هجم التتار ، وارتفع النقعُ المُثار تقدم المسلمون إليهم ، والتقيا الجمعان . وكانت الميمنة الإسلامية قبالة ميسرتهم ، فصدقتهم القتال ، ونازلتهم أشدّ النزال ، فكسرت ميمنة الإسلام ميسرة التتار ، وقتلوا منهم خلقا كبيرا . وولى منكوتمر هزيما ، وولى جميعهم الأدبار ، وشمروا للفرار ، وتبعنا آثارهم ، وظننا أن الميسرة الإسلامية قد فعلت كذلك ، وإذا بها لمّا لاقوا التتار ، وحملوا عليهم ، وانهزموا ولم يثبتوا ، وعدّى سنقر الأشقر نهر العاصى هاربا ، وعسكر حصن الأكراد ، ومن كان فى الميسرة ، وتبعهم التتار إلى سدّ حمص المعروف بأسد الدين ، ولا علم لهم بانهزام مسلكهم . وأما نحن ، فلما هزمنا التتار تبعناهم إلى العصر ، وأتينا على أكثرهم قتلا وأسرا . ولمّا ثنبنا عنهم الأعنة تبيّنا نقعا ثائرا ، وعسكرا سائرا ، فلم نشك أنه من العساكر الإسلامية ، فانجلى عن عسكر التتار الذين كسروا الميسرة ، وقد رجعوا على آثارهم ، وولّوا على أدبارهم ، وهم مجتمعون بعضهم إلى بعض ، مسرعون يركضون أيّما ركض ، واجتازوا بالسلطان وهو فى نفر قليل من الأجناد ، وجمع كثيف من الأثقال والسواد ، فوقفوا قبالته ساعة وهو رابط الجأش

---

(١) من رجب الفرد ، انظر زبدة الفكرة ، الورقة ١١٤ .

لا يتزحح [١] ، وتشاوروا ثم وَلّوا عنه ، ولم يلموا به ، ولا دنوا منه . وكان هذا من العناية الالهية ، وإلا لو تقدموا إليه ، ووثبوا عليه ، والعساكر عنه قد تفرقت ، لكانوا أثروا أثرا ، وقضوا من التمكن وطرا ، وإنما أعمى الله أبصارهم ، وقدّر للمسلمين انتصارهم . والسبب الذى اقتضى رجوعهم أنهم لما وصلوا خلف العسكر الذى هزموه إلى سُدّ حمص [٢] ، [نزلوا عن خيلهم فى المرج الذى عند سد حمص منتظرين قدوم رفقتهم معتقدين ربح صفقتهم ، ولم يعلموا أنهم قد انكسروا ، وولوا وأدبروا . فلما طال بهم الانتظار ، أرسلوا من يكشف لهم الأخبار ، فعاد الكشافة إليهم وأخبروهم بما تم عليهم ، فركبوا خيولهم ، وقد فقدوا عقولهم ، وعادوا راجعين ، وبأصحابهم لاحقين] [٣] .

[ذكر نسخة الكتاب الواصل من جهة إيلخان أحمد تكدار ملك المغول بفارس إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ ، مُخبرا بانتقاله إلى مِلّة الإسلام ، هو ومن معه من التتار] [٤] .

[بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال قاآن ، فرمان أحمد إلى سلطان مصر : أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى ، بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده فى بريته ، ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ

---

(١) كذا فى الأصل ولعل المقصود « يتزحزح » ، كما فى الزبدة ، الورقة ١١٦ .

(٢) من هنا نقص فى المخطوطة حتى وصول خطاب السلطان أحمد إلى المنصور قلاون .

(٣) مابين المعكوفتين نقلا عن زبدة الفكرة ، الورقة ١١٦ ، أثبتناه لكى يتسق الكلام .

(٤) ما أثبتناه هنا بين المعكوفتين نقلا عن زبدة الفكرة ، الورقة ١٣١ ومابعدها حتى يستقيم السياق . وقد نقل هذا الكتاب رُسُل إيلخان أحمد تكدار ملك المغول بفارس على يد القاضى قطب الدين الشيرازى ، قاضى سيواس ، والأتابك بهاء الدين ، وشمس الدين بن الصاحب ، انظر ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٥ – ١٦ ؛ والمقريزى ، السلوك ، ١–٣ / ٩٧٧ – ٩٨٤ .

أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ [١] . فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور [الإسلام] والمسلمين ، إلى أن أفضت بعد أبينا الجيِّد وأخينا الكبير نوبةُ المُلك إلينا ، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه ، وجلا هدى المملكة على يدينا ، وأهدى عقيلتها إلينا . فاجتمع عندنا فى قوريلتاى [٢] المبارك – وهو المجمع الذى تنقدح فيه الآراء – جميع الإخوان والأولاد [٣] ، والأمراء الكبار ومُقَدمى العساكر وزعماء البلاد . واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير فى إنفاذ الجمّ الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برُحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رُعْبا لعظيم صولتها ، وشديد بطشتها إلى تلك الجهة ؛ بهمة تخضع لهاشمُّ الأطواد ، وعزمة تلين لها صمُّ الصِلاد . ففكرنا فيما تمخضت زُبْدة عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتناء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تقوية شِعَار الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حَقْن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رُخَاءً نسائم الأمن والأمان ، وتستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله ، وشفقة على خلق الله .

فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا] الله إليه من تقديم ما يُرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء [٤] ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء . وإننا لا نحب المسارعة

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية ١٢٥ .

(٢) أى مجلس السلطنة فى المغولية ، وهو الذى يصدر الأحكام ويبحث الأمور الهامة التى لا ينفرد الحاكم بالبت فيها وحده .

(٣) الإخوان هنا بدلا من التعبير المغولى « أقاوايني » أى الأخوة الكبار والصغار من البيت المالك ؛ والأولاد بدلا من « أوغول » أى ولد ، ومعناها هنا الأمراء .

(٤) أى الحروب .

إلى هزِّ النِّصال للنضال إلا بعد إيضاح المحجّة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق ، وتركيب الحُجة . وقوّى عزمنا [على] ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، إذكار شيخ الإسلام ، قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ، فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة ، قطب المِلّة والدين ، والأتابك بهاء الدين [(١)] ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة لِيُعرفّاهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما تنطوى عليه لعموم المسلمين جميلُ نيتنا ، وبينا لهم أنّا من الله على بصيرة ، وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وإنه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، ولا يُحْرَمُوها بالنظر إلى سالف الأحوال ، فكل يوم هو فى شأن [(٢)] ، فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تُستحكم بسببه دواعى الاعتماد ، وحُجة يثقون بها من بلوغ المُراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أثرنا مما اشتهر خبره ، وعم أثره . فإنا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى بإعلاء أعلام الدين وإظهاره فى إيراد كل أمر ، وإصداره تقديما وإقامة لنواميس الشرع المحمدى على مقتضى قانون العدل الأحمدى إجلالا وتعظيما . وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا : ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ [(٣)] ؛ وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع البِر والرُبُط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مُستّحقها بشروط واقفها ، ومنعنا أن يُلتمس شىء ممّا استُحدِث عليها ، وأن لا [(٤)] يغيّر أحد شيئا مما قُرِّر أولا

---

(١) الأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود صاحب الروم .

(٢) إشارة إلى الآية ٢٩ من سورة الرحمن « كل يوم هو فى شأن » .

(٣) سورة المائدة ، من الآية ٩٥ .

(٤) كذا فى كل الرسالة ، وربما كان الأصح « ألّا » .

فيها ، وأمرنا بتعظيم أمر الحاج ، وتجهيز وفدها وتأمين سُبلها ، وتسيير قوافلها . وإنا أطلَقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ، ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحَرّمنا على العساكر والقراغول [١] والشحانى [٢] فى الأطراف ، التعرض بهم فى مصادرهم ومواردهم . وقد كان قراغوانا صادف جاسوسا فى زِىّ الفقراء كان سبيل مثله أن يُهلك ، فلم يُهرق دمه لحُرمة ما حرَّمه الله تعالى ، وأعدناه إليهم ؛ ولا يخفى عليهم ما كان فى إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ؛ فإن عساكرنا طالما رأوهم فى زىّ الفقراء والنُسّاك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم فى تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك بما صَدَر إذننا به من فتح الطريق ، وتردد التجار وغيرهم ، فإذا أمعنوا الفكر فى هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جِبِلِّيَّة طبيعية ، وعن شوائب التكلُّف والتصنع عَرِيَّة . وإذا كانت الحال على ذلك ، فقد ارتفعت دواعى المَضَرة التى كانت موجِبة المخالفة ، فإنها إن كانت بطريق الدين والذب عن حَوْزة المسلمين ، فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فمن تحرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا الزُلفى وحُسن المآب ، وقد رفعنا الحجاب ، وأتَينا بفصل الخِطَاب ، وعرَّفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحَرَّمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها لنرضى بها الله والرسول ، وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وينجلى بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغُمَّة ، وتسكن فى سابغ ظلها البوادى والحواضر ، وتقرّ القلوب التى بلغت من الجُهد الحناجر ، ويعفى عن سائر الهنات والجرائر . فإن وَفَّق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه

---

(١) وهم حراس الطريق .

(٢) جمع شحنة وهو ضابط البوليس أو الحاكم .

صلاح العَالَم وانتظام أمور بنى آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعُروة الوُثقى ، وسلوك الطريقة المُثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتُغمد السيوف الباترة ، وتحُل العامة أرض الهُوينى وروض الهدون ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذُّل والهُون ؛ وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومَنَع معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا ، وأبلى عُذْرَنا ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [١] ؛ والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، وحسبنا الله وحده .

كتب فى أوسط جُمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة بمقام الإطاق [٢] .

[ذكر نسخة جواب السلطان الصادر إليه] [٣]

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور ، كلام قلاون إلى السلطان أحمد .

أما بعد حمد الله الذى أوضح بنا ولنا للحق منهاجا ، وجاء [بنا] فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، والصلاة على سيدنا محمد الذى فضَّله الله على كل نبى ، نَجىّ به أمته ، وعلى كل نبى ناجى ، صلاة تنير مادجا ، وتُثير مَن داجَى ، فقد وصل الكتاب الكريم المتلقى بالتكريم ، المشتمل على النبأ العظيم من دخوله فى الدين ، وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين ، ولمّا فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر المُعلم ، والحديث الذى

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١٥ .

(٢) مقام الإطاق هو معسكر السلطان .

(٣) ما بين المعقوفتين نقلا عن السلوك ١-٣ / ٩٨٠ ، وهذا الخطاب كتب بإنشاء محى الدين ابن عبد الظاهر ، انظر مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٥١٠ .

صحيح عند أهل الإسلام إسلامه ، وأصحُّ الحديث ما رُوى عن مُسلم ، وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه فى أن يُثَبِّته على ذلك بالقول الثابت ، وأن يُنْبِت حَبّ حُبّ هذا الدين فى قلبه كما أنبته أحسن النبت من أخشن المنابت ، وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النيَّة فى أول العُمر وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانيَّة ، ودخوله فى المِلّة المحمدية بالقول والعمل والنية ؛ فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ، وألْهمه شريف هذا الإلهام ، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام ، وثبَّت أقدامنا فى كل موقف اجتهادٍ وجهادٍ تتزلزل دونه الأقدام . وأما إفضاء النَوْبة فى المُلْك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه ، وإفاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه ، وتُوَقُّلُه الأسِرَّةَ التى طهَّرها إيمانه ، وأظهرها سلطانه ، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده ، وصدَّق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعُبَّاده . وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمى العساكر وزعماء البلاد فى مجمع قوريلتاى الذى تنقدح فيه زُنُد الآراء ، وأن كلمتهم اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير فى إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب ، وأنه قد فكَّر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه أهواؤهم ، فوجده مخالفا لما فى ضميره إذ قصدُه الصلاح ، ورأيه الإصلاح ، وأنه أطفأ تلك النَائِرة ، وسكّن تلك الثائرة ، فهذا فعل المِلِك المتَّقى المشفِق من قومه على من بقى ، المفكِّر فى العواقب بالرأى الثاقب ، وإلا فلو تُركوا وآراؤهم حتى تحملهم الغِرّة ، لكانت تكون هذه الكَرَّة هى الكَرَّة ، لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى [1] ، ولم يوافق قول من ضَلَّ ولا فعل من غوى . وأما القول منه أنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة وتركيب الحجة ، فبانتظامه فى سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المتركبة على من غَدَت

---

(١) اقتباس من الآية ٤٠ من سورة النازعات .

طواغيته عن سلوك هذه المحجة مُتَنكّبه ؛ فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا [واجتهادنا] إنما هو على الحقيقة لله ، وحيث قد دخل معنا فى الدين هذا الدخول ، فقد ذهبت الأحقاد ، وزالت الذُّحُول (١) ، وبارتفاع المنافَرة تحصل المظافرة ، فالإيمان كالبنيان يشدّ بعضُه ببعض ، ومن أقام منارهُ فله أهل بأهل فى كل مكان ، وجيران بجيران فى كل أرض .

وأما ترتيب هذه القواعد على أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله من بركاته ، فلم تُر لولى قبله كرامة كهذه الكرامة ، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ، ويعود شمل الإسلام مجتمعا كأحسن ممَّا كان ، وما يُنكر لمن لكرامته ابتداءً هذا التمكين فى الوجود ، أن كل حق ببركته إلى نصابه يعود .

وأما إنفاذ أقضى القضاة ، قُطب الملّة والدين ، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما فى إبلاغ هذه البلاغة ، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالى (٢) أحواله ، وخَطَرات خاطره ، ومنتظرات ناظره ، ومن كل ما يُشكر ويحمد ، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الإشارة إلى أن النفوس إن كان لها تَطَّلع إلى إقامة دليل تستحكم بسببه دواعى الوُد الجميل ، فلتنظر إلى ما ظهر من مآثره فى موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والإحسان بالقلب واللسان ، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط ، وتسبيل السبيل للحج إلى غير ذلك .

---

(١) ومفردها الذَّحْل أى الثأر .

(٢) جمع حالية أى نفائس أحواله .

فهذه صفات من يُريد لملكه الدّوام ؛ فلما ملك عدل ولم يمل إلى لؤم من عدا ، ولا لوم من عذل ؛ على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة والمَثوبات التى تستنطق بالدعاء الألسنة ، فهى واجبات تؤدى وقُربات بمثلها يُبَدَّى ، وهو أكثر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر أوله يدخر ، بل إنما تفخر الملوك الأكابر بردّ ممالك على ملوكها ، ونظمها على ما كانت عليه فى سُلُوكها . وقد كان والده فعل شيئا من ذلك مع الملوك السلجوقية وغيرهم ، وما كان أحد منهم يَدينه بِدين ، ولا دخل معه فى دِين ؛ وأقرَّهم فى مُلْكهم وما زحزحهم عن مِلْكهم ، ويجب عليه أن لا يرى حقا مغتصبا ويأبى إلا رَدَّه ، ولا باعا ممتدا بالظلم ويأبى إلا صَدَّه . حتى أن أسباب ملكه تقوى ، وأيامه تتزين بأفعال التقوى .

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحانى بالأطراف ، التعرض إلى أحد بالأذى ، وإصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القَذَى ، فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك ، تقدمنا أيضا بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب ، وإلى مقدمى العساكر بأطراف تلك الممالك . وإذا اتحد الإيمان ، وانعقدت الأيمان ، تَحتم هذا الإحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام .

أما الجاسوس الفقير الذى أمسك وأطلق ، وأنّ بسبب من يَتَزَيَّا من الجواسيس بزى الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رَجْماً بالظن ، فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فَتْحُه ، وزَنْد من ذلك الطرف كان قَدْحُه . وكم من متزيٍّ بفقير من ذلك الجانب سيرّوه ، وإلى إطلاع على الأمور سَوّروه ، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ، ولم يُكشف ما غطوّه بِخِرْقة الفقر بِلِمَ ولا كيف .

وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلى ظُلم الاختلاف ، وتَدِرّ بها من الخيرات الأخلاف ، ويكون بها صلاح العالم ، وانتظام شمل بنى آدم ، فلا راد

لمن فتح أبواب الاتحاد ، وجَنَح للسلم وما حادَّ ولا حاد ، ومن ثنى عِنَانه عن المكافحة فهو كمن مدَّ يد [المصالحة] للمصافحة ، والصلح وإن كان سيّد الأحكام ، فلابُدَّ من أمور تُبنى عليها قواعده ، وتعلم من مدلوله فوائده . فالأمور المسطورة فى كتابه هى كلِّيات لازمة يُعَمرّ بها كل مغنى ومعلم ، إن تهيأ صلح أو لم ؛ وثَم أمور لابد وأن تحكم ، وفى سلكها عقود العهود تُنظم ، قد تحملها بلسان المشافهة التى إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس ، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس .

وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » ، فما على هذا النَسَق من الود ينسج ، ولا على هذا السبيل ينهج ؛ بل لفضل المتقدم فى الدين ونصره عهود تُرعى ، وإفادات تُستدعى ، وما برح الفضل والأولوية وإن تناهى العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مُوْرِد هذه الآية فى غير مكانها لتروى وتأول .

وعندما انتهينا إلى جواب ما لعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب سمعنا المشافهة التى على لسان أقضى القضاة قطب الدين ، وكان منها ما يناسب مافى هذا الكتاب من دخوله فى الدين ، وانتظام عقدِه بسلك المؤمنين ، وما بَسَطه من مَعْدلة وإحسان ، مشكورة بلسان كل إنسان ، فالمِنّة لله عليه فى ذلك ، فلا يشينها منه بإمتنان ، وقد أنزل الله على رسوله فى حق من امتنّ بإسلامه : « قل لاتمنوا علىّ إسلامكم بل الله يَمُنّ عليكم أن هداكم للإيمان » [1] .

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما فى يد غيره من أرض وماء ، فإن حصلت الرغبة فى الاتفاق على ذلك ،

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٧ .

فالأمر حاصل . فالجواب أن ثم أمورا متى حصلت عليها الموافقة ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ، ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا ، وإذلال عدونا وإعزاز مُصافينا ؛ فكم من صاحب وُجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة ، وما تم أمرُ هذا الدين واستحكم فى صدر الإسلام إلا بمظافرة الصحابة . فإن كانت الرغبة مصروفة إلى الاتحاد وحُسن الوداد وجميل الاعتضاد ، وكبت الأعداء والأضداد ، والاستناد إلى من يشتدّ الأزر به عند الاستناد ، فالرأى إليه فى ذلك .

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة إلى مافى يده من أرض وماء ، فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود . فالجواب عن ذلك أنه إذا كفّ كفُّ العُدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك ، سكنت الدهماء ، وحُقنت الدماء ، وما أحقه بأن لا ينْهى عن خُلُق ويأتى مثله [1] ، ولا يأمر ببرّ وينسى فعله ؛ وقنغرطاى بالروم ، وهى بلاد فى أيديكم ، وخراجُها يُجْبى إليكم ، وقد سفك فيها وفَتَك ، وسَبَى وهتك ، وباع الأحرار وأبى إلا التمادى على الإضرار والإصرار .

ومن المشافهة ، أنه حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الغارات ولا يفتر عن هذه الإثارات ، فيُعيّن مكانا ويكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء . فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى اتّفق فيها مُلتقى الجَمْعَين مرة ومرة ومرة ، قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم ، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم . فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يُقَدَّر ، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدَّر ؛ ولا نحن ممن ينتظر فلتة ، ولا ممن له إلى غير ذلك لفَتْة ، وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة التى لا تأتى إلا بغتة .

---

(١) وهذا من قول الشاعر :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

والله الموفّق لما فيه إصلاح هذه الأُمّة ، والقادر على إتمام كل خير ونعمة . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وفى سنة ٦٨٣ هـ خرج السلطان إلى دمشق بسبب الرُسُل ، فجاء سيل حتى غرّق البساتين والدور ، ومات خلق لا تحصى .

ولما استولى السلطان أحمد على المُلك ، خرج أرغون ابن أخيه أبغا لقتاله من خُراسان ، واتقعا ، فوقعت الكسرة على أرغون ، فأمسكه عمّهُ ، وقيده ، فانتصرت له الخانات والأمراء ، واستنقذوه من يده ، وحلفوا له ، وقتلوا عمه السلطان أحمد ، وأجلسوه فى المملكة عوضه سنة ٦٨٣ هـ .

وفى شهر ربيع الأول سنة ٦٨٤ هـ ، فُتُوحُ المَرقُب من الأرمن والفرنج لأن الأمير سيف الدين بلبان الطباخى المنصورى نائب حصن الأكراد سيرّ إلى السلطان يُعَرِّفه أن حصن المرقب قد خلا من الخيّالة والرجّالة ، ويستأذنه فى التوجه إليه بمن عنده من عساكر حصن الأكراد ، فرسم له بذلك . ولما توجه إليها خرج الأرمن والفرنج والساحلية وكسروهم ونهبوهم . ولما بلغ السلطان حنق حنقا عظيما ، وأمر بتجهيز العساكر لغزاة المرقب . وسيرّ خلف الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، فلم يتفق حضوره ، وتحقق للسلطان ملقه وخداعه . ونزل السلطان بالمرقب ونازله ، ونصب المجانيق ، وصدق المسلمون القتال ، وطلب أهلها الأمان ، فأجيبوا إليه ، وجهز السلطان أهلها إلى طرابلس حسبما سألوا ، ولم يغدر منهم بأحد ، ولا فرق بين والدٍ وولد بل توجهوا إلى مأمنهم . وكان الأمير شمس الدين سنقر الأشقر قد أرسل ولده ، ولما رأى السلطان أنه تأخر عن الحضور ، أرسل ولده إلى الديار المصرية حنقا على أبيه وغيظاً من تأخره وتأبيه .

وعاد السلطان إلى الديار المصرية فوجد المدرسة التى أمر بإنشائها بين

القصرين قد كملت هى والتربة التى بإزائها ، والمارستان ، وكتاب السبيل . وكانت مدة عمارتهم [١] جميعا سبعة شهور لا غير ، لأنه حصل الشروع فيها فى أوائل شعبان سنة ٦٨٢ هـ ، والفراغ منها فى صفر سنة ٦٨٣ هـ . وشاد العمارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أحد المماليك السلطانية المنصورية ، وكان المشار إليه مُشدّ الدواوين [٢] بالديار المصرية .

وفى أوائل سنة ٦٨٥ هـ ، استرجع السلطان الكرك من أولاد الملك الظاهر لما كانوا عليه من سوء التدبير ، وفرط التبذير ، وإضاعة ما كان والدهم خزّنه بها من الأموال الجزيلة ، والذخائر الكثيرة ، وجرّد إليهم الأمير حسام الدين طُرنطاى المنصُورى نائب السلطنة وصحبته العساكر ، ونزل عليها أياما ، وحاصرها وضايقها ، واستمال من كان بها ، وبذل لهم الأموال . فأرسل إليه أولاد الملك الظاهر فى طلب الأمان ، وتأكيد الأيمان . فأجابهم إلى مُلْتمسِهم ، وضمن لهم عن السلطان صيانة أنفسهم ، ووعدهم عدات جميلة . فحينئذ نزل إليه الملك المسعود نجم الدين خضر ، والملك العادل بدر الدين سلامش ، ولدا الملك الظاهر . وتسلم الكرك فى العشر الأول من صفر سنة ٦٨٥ هـ ، ورتب أحوالها . ولما وصل إلى الديار المصرية بالمذكورَيْن ، تلقّاهم السلطان بنفسه ، وبسط لهما مهاد أنسه ، وأمّرهما بطبلخانتين ، ووصَلهُما وأسْكنهُما بالقلعة ، وصارا يركبان مع ولديه ، ويسيران فى المواكب بين يديه . ولما أقاموا على ذلك مدة ، فاتفق أن بلغه عن جماعة من المماليك الظاهرية الذين أبقاهم ، أنهم قد أزمعوا أمراً ، وأضمروا غدراً . فأوجب ذلك إمساك المذكورين واعتقالهما . ولم يزالا فى الاعتقال إلى أن مات السلطان .

---

(١) كذا فى الأصل ولعل الصواب « عمارتها » .

(٢) ووظيفته استخلاص ما يتقرر فى الديوان ، انظر السبكى ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

قال المُصنّف المقر الركنى بيبرس الدوادار [١] : وَجَهّزنى السلطان إلى الكرك نائبا ، وأعطانى إمرة بثمانين فارسا [٢] . ولم أزل مستمرا إلى أن توفى السلطان . وكانت مدة الإقامة أربع سنين . وانتقلت إلى الديار المصرية فى الدولة الأشرفية .

وفى أوائل سنة ٦٨٦ هـ ، استرجع صهيون من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، وذلك أنه لمّا لم يحضر إلى الخدمة بالمرقب مع قرب المسافة ، وتأخر عن مناصرة العساكر ، ثم إن نواب القلاع المجاورة له تواترت بالشكاوى منه . فجهز إليه الأمير حسام الدين طُرنطاى بالعساكر ، وتوجه إلى صَهْيُون ، ونزل عليها ، ونازلها ونصب المجانيق ، ولمّا أشرف على أخذها ، طلب منه الأمان ، فأجابه ، وقرر معه أن لا يؤذيه ، وأن يكون واسطة بينه وبين السلطان فى الإبقاء عليه ، فضمن له عن السلطان ، وخرج من صهيون ، وتسلمها الأمير حسام الدين المشار إليه ، ورتب بها النّواب وأرباب الوظائف ، وقرر أحوالها ، وعاد إلى الديار المصرية وهو صُحبته . ولما وصل ، خرج السلطان للقائه ، وترجّل كل مُنهما عن فرسه ، وتعانقا وتكارشا [٣] وتباكيا ، وأطلعه إلى القلعة ، وبالغ فى الإنعام عليه ، والإحسان إليه ، وقرّبه وأدناه ، ونال من إكرامه فوق ما تمنّاهُ ، وأعطاهُ إمرةً بمائة فارس . ولم يزل كذلك إلى أن توفى السلطان ، وملك ولدُه الملك الأشرف ، فقبض عليه ، وأعدمه سنة ٦٩١ هـ .

وفى شعبان من هذه السنة [٦٨٧ هـ] ، توفى الملك الصالح ولد السلطان ، وكان اسْمُهُ علاء الدين على ، وأمه ابنة كرمون التى ذكرنا أن السلطان بنى بها وهو أمير فى الدولة الظاهرية ، وخلّف الملك الصالح المذكور

---

(١) لعل هنا مايثبت أن مُصنّف هذا التاريخ هو بيبرس المصورى نفسه وليس سكرتيره ابن كبر .

(٢) انظر المقدمة ص (ش) .

(٣) أى احتضنه ، والتكريش عادة من عادات المماليك عند تبادل التحية الحارة .

ولداً يُسَمَّى مظفر الدين موسى ، فأسى السلطان عليه أسىً عظيماً ، وَوَجَدَ بفقده وجداً جسيما ؛ وكان كامل الأدوات ، حقيقا بأسباب الرياسات .

وفى هذه السنة المذكورة ، سنة ٦٨٨ هـ ، فتوح مدينة طرابلس الشام . وذلك أنّه تواترت إليه كتب النُوّاب بالشّام بحصن الأكراد ، والمناصفات الساحلية ، يشكون من حيف الفرنج الذين بطرابلس . فعزم على قصدها ؛ وكتب إلى النواب بالشام بإحضار العساكر إليها من جميع الجهاتِ ، وتجهيز الآلات والمنجنيقات ، ونزل عليها فى أوائل السنة ، وشدّد القتال ، وضاعف الاجتهاد والاحتفال ، فأخذت فى الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ ، وبُذِل السيف فى أهلها ، واستحكم القَتْلُ من شيخها وكهلها ، وأُسر الشبان والعذارى ، وأمر السلطان بإخرابها ، وإحراق أسوارها وأبوابها ، فخربت وأحرقت . وعاد إلى الديار المصرية مُظَفّراً مَنْصوراً ، ولم تزل مملكته مُتَسِّقة النظام ، ودولته صافية الليالى والأيام ، وهو خَلّى البال من عدو يُناصبه أو جيش يُحارِبُه ، وقِرنٍ يضاربه ، إلى أن دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة . فبلغه عن أهل عكّا أنهم قد أكثروا الفساد بتلك البلاد ، واعتمدوا الإضرار بالتجار ، وقتلوا من المسلمين ثلاثين نفرا ، فغاظه ذلك ، وغضب وراسلهم بالإنكار ، واسترجاعهم عن العُدوان والإضرار . فأبوا إلا التمادى على الإصرار ، وإبداء الأعذار . فأمر العساكر بالتأهب والتجهيز ، فتأهبوا وخرج الدهليز المنصُور بمسجد التين [١] ، وترك ولده الملك الأشرف بالقلعة . وأقام ريثما يَكْمُل خُروج العساكر ، ثم بعد ذلك يسافر .

---

(١) أو مسجد تبر ، ويقع بظاهر القاهرة (وتبر هذا أحد الأمراء الأكابر فى أيام كافور الأخشيدى) . وكان هذا المسجد يعرف قديما باسم مسجد البئر والجميزة ، وتسميه العامة مسجد التين ، وهو خطأ . انظر المقريزى ، الخطط ، ٤١٣/٢) .

ولما كان فى العشر الأول من ذى القعدة سنة ٦٨٩ هـ ، حصل للسلطان مرضٌ شَديدٌ ، ولم يلبث إلا أياماً ثم توفى وانتقل إلى جوار ربه بالدهليز بالمنزلة المذكورة .

وكانت مدة سلطنته إلى هذا التاريخ إحدى عشرة سنة ، فوقف الأمير حسام الدين طرنطاى ، نائب السلطنة ، بنفسه وأطلعه إلى القلعة ، وأطلع الخزائن بجملتها ، والبيوت السلطانية برمتها ، وحسم المادة ، وأجلس ولده الملك الأشرف فى دست السلطنة .

وأما السلطان الملك المنصور فكان ذا حلم ورأفة . ولما ملك أحسن إلى ألزامِه كافة ، ونظر فى حال إمرته . وأما مماليكه ، فإنه رفعهم إلى الإمرة كل منهم على قَدْرِ طبقته ، وشركهم فى نعمته ، وسرت فيهم أنفاس سعادته من بعده ، فمنهم من رقى إلى السلطنة المُعظّمة ، ومنهم من ولّى النيابة بالديار المصرية ، والممالك الشامية ، والحصون الإسلامية ، ومنهم من اجتمعت له الوزارة مع الإمارة فى وقت معا . وسنذكر الآن منهم الأعيان ، فمنهم :

الأمير حسام الدين طَرُنطاى
نائب السلطنة نيابة عامة

الأمير زين الدين كَتُبغا
نائب السلطنة ثم السلطنة

الأمير حسام الدين لاجين السلحدار
نيابة السلطنة بالممالك الشامية ثم السلطنة

الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار
نيابة السلطنة بالبلاد الحلبية والديار المصرية

الأمير سيف الدين بلبان الطّباخى
نيابة السلطنة بالحصون ثم حَلب

الأمير علم الدين سنجر الشجاعى
وزير الديار المصرية ، ونائب بالبلاد الشامية

الأمير بدر الدين بيدرا
الوزارة ونيابة السلطنة والسلطنة يوما واحدا

الأمير سيف الدين سلار
أستاذ داريّة ونيابة السلطنة

الأمير شمس الدين كُرتْيه
نيابة السلطنة بالسواحل وغزة والديار المصرية

الأمير عز الدين أيبك الخَزَندار
نيابة السلطنة بالحصون ثم الديار المصرية

الأمير سيف الدين غازى
نيابة السلطنة بحمص وأعمالها

الأمير سيف الدين قفجاق
نيابة السلطنة بالمملكة الشامية

الأمير عز الدين أيبك الموصلى
نيابة البلاد الصفدية

الأمير بدر الدين بيليك الطيّار
نيابة السلطنة بالبلاد الصفدية

الأمير علم الدين سنجر أرجواش
نيابة قلعة دمشق المحروسة

الأمير جمال الدين أقش الأشرفى
نيابة السلطنة بالكرك

الأمير سيف الدين قجقار
نيابة السلطنة بالبلاد الصفدية

الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار
نائب السلطنة بالبلاد الصفدية

الأمير علم الدين سنجر المصرى
نيابة السلطنة بحمص

الأمير سيف الدين طُغريل
نيابة السلطنة بصفد

وأما من ساد من مماليكه الذين اشتراهم بعد سلطنته ، وقدّمتهم الدُّول بعد انقضاء دولته ، وقادوا الجيوش ، وتقدموا على الألوف ، وحفظوا البيت المنصورى ، وقاموا بمناصحته ، فمنهم :

الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير
أستاذ الدار العالية ثم السلطنة

الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار
إمرة مائة فارس ، وتقدمه ألف

الأمير سيف الدين كراى السلحدار
نيابة السلطنة بصفد

الأمير سيف الدين برلغى
إمرة مائة والتقدمة

الأمير جمال الدين أقش الأفرم
نيابة السلطنة بدمشق

الأمير سيف الدين أُسندمر
نيابة السلطنة بالفتوحات

الأمير سيف الدين طُغجى
إمرة مائة ونيابة السلطنة

الأمير عز الدين أيدمر طقطاى
إمرة مائة

الأمير فخر الدين إياز المنصورى
نيابة قلعة المسلمين

الأمير سيف الدين بكتمر الأبوبكرى
الإمرة والتقدمة

الأمير شمس الدين سنقرجاه كذلك	الأمير عز الدين أيبك البغدادى الوزارة بالديار المصرية
الأمير سيف الدين بتخاص نيابة السلطنة بصفد	الأمير سيف الدين طغريل الإيغانى نيابة السلطنة بالفتوحات
الأمير سيف الدين قطُلوبك نيابةالسلطنة بالفتوحات	الأمير سيف الدين طوغان نيابة السلطنة بالبيرة

وإنما وصفنا المشاهير ، وأضربنا عن كثير ، لأن مماليك السلطان المشار إليه كانوا قد ناهزوا فى العدّة حول ستة آلاف مملوك ، فلو ذكرنا من ارتقى إلى الإمرة بالديار المصرية والشامية ، ومن ولى كُلّ البلاد الإسلامية لأطلنا إطالةً تُمّلُ السامع ، وتملأ المسامع ، وإنما اقتصرنا على ذوى النباهة والرفعة ، ومن له بين الأنام شُهرة وسُمعة .

* * *



الملك الأشرف صلاح الدين خليل
ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحى

كان جلوسه بعد وفاة والده يوم الأحد السابع من ذى القعدة سنة ٦٨٩ هـ .

وقبض على الأمير حسام الدين طرنطاى النائب لأنه كان قائما فى مناصحته ، وباذلا جهده فى محافظته ، وإنما كان بينه وبين الأمير علم الدين سنجر الشجاعى إحَن [١] عظيمة ، وشحناء قديمة ، وكذلك الأمير بدر الدين بيدرا ، وبعض الخاصكية لأنه كان يسطو عليهم ، ويقبض عن الامتداد إلى المقاصد الرَديّة يَديهم ، فخيّلوا السلطان منه ، وأشاروا عليه بقبضه ، فقبض عليه بعد وفاة أبيه بثمانية أيام ، وأُخذت أمواله ، وحُملت إلى الخزائن السلطانية ، ونهبت مماليكه وخيوله وحواصله ، وكان شيئا عظيما لا يحصى كثرةً . وولى عوضاً عنه فى النيابة الأمير بدر الدين بيدرا .

وأمر العساكر بالتوجه إلى غزاة عكّا ، وكان خروجه فى أوائل شهور سنة ٦٨٩ هـ ، وتقدمت مراسمه إلى الأمير حُسام الدين لاجين المنصورى النائب بالشام بأن يحضر وصحبته العساكر الشامية ، وما يُحتاج إليه من الآلات والمجانيق وغيرها ، واستدعى النواب من صفد والفتوحات وسائر الجهات . ونزل على عكا ، وأخذت الفرنج فى التأهب والاستعداد ، والجمع والأحشاد ، وتواصلت إليهم من جواء البحر النُجد والأمداد ، ونصبوا المنجنيقات ، وحَصنوا الأسوار ، واجتمع الديويّة والاسبتار . وكان الوصول إليها فى الرابع من ربيع الأوّل . ولم تعبأ الفرنج بما شاهدوه من الكثرة ، بل لم تزل أبوابها مفتوحة مُدّة

---

(١) مفردها إحنة وهى الحقد .

الحصار لم تغلق فى ليل ولا نهار ، وصاروا يخرجون خارج السور ويقاتلون . ورتّب السلطان العساكر فى الزحف ، ورمتها المجانيق فلم تؤثر أثرا ، ولم يرهبوا من رمىٍّ سهماً ولا حجراً . ولم يزل الحال كذلك حتى رُمى برج من أبراجها ، فوجدنا [١] السبيل إلى ردم الثغر والخنادق إلى أن صار طريقا يسلكها الفارس والراجل . واجتمع الفرنج بخَيلهم ورَجْلهم ، وشمروا عن ساعد وساق ، واتسقوا على الأسوار أعظم اتساق ، فصَدقناهم القتال ، وقتل من الفريقين خلق لا يحصى عدداً ، وأبذلت فى افرنجها السيوف ، وأديرت عليهم كأس الحُتوف ، وغنم المُسلمون الغنائم ، وسَبَوْا الحلائل ، وأسروا الشُبّان ، وأردوا الفرسان . وكان فتحها عظيما . ومدة الحصار كانت نيفاً وأربعين يوما ، وعدّة من أُسر من أهلها ثلاثة ألف نفرٍ ، وأما القتلى فيزيدون عن العدّ .

وكان ما فتحه الله على يد السلطان بعد عكا ، صُور ، وعتليت ، وبيروت ، وصيدا ، وحيفا . وتوجّه أهل هذه البلاد إلى قُبرس فى الحال ، وكفى الله المؤمنين القتال . وأمر السلطان بهدم هذه القلاع فهدمت ، وكانت موجودة فأعدمت .

وسار السلطان إلى قلعة الروم بجأش مكين ، وجيش يرهب المشركين ، وجمع العساكر الشامية والحلبية . وكان نزوله عليها يوم الثلاثاء من جُمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وستمائة . واجتهد فى حصارها وجَدَّ ، وأعدّ لها من الآلات والمجانيق ما لا يُعدُّ . وأقمنا على ذلك عشرين يوما متواليةً . وفى أثناء ذلك ، وافت طائفة من عسكر التتار إلى جانب الفرات الشرقى . ولما وصلت الطلائع مُخْبِرة بوصولهم جرّد السلطان الأمير بدر الدين أمير سلاح مُقدِماً ، وجماعة من الأمراء . قال المصنف : فتوجهنا إلى جهة شميصات ركضا ، وأسرعنا

---

(١) شرح بيبرس المنصورى الحيلة العسكرية التى خطرت له بردم الثغر والخنادق شرحا وافيا فى زبدة الفكرة ، الورقة ١٧٠ .

إليها نطوى أرضاً فأرضاً ، وعدينا الفُراتَ . وكان التتار قد أحسوا بوصولنا إليهم ، وهجومنا عليهم ، فانهزموا قبل الدنُّو منهم ، ولم ندرك سوى آثارهم ، ومواقد نارهم ، ورجعنا إلى البيرة ، ومنها إلى قلعة الرّوم ، واستمر حصارها إلى أن أخذت فى يوم الجمعة سابع عشر رجب سنة ٦٩١ هـ ، وأخرج منها الكاغيلوس (١) ومن كان معه . ورتب السلطان الأمير علم الدين سنجر الشجاعى لعمارتها ، وأمر أن لا تُدعى قلعة الروم بل قلعة المسلمين الأشرفية ، واستقرت فى جملة الممالك الإسلامية .

وفى سنة ٦٩٢ هـ ، بلغ السلطان أن العربان بالوجه القِبلى قد امتدت أيديهم إلى الفساد ، وقطعوا الطُرقات ، وقتلوا بعض الوكلاء ، وخرجوا عن الواجبات ، فقصد الطلوع إلى الوجه المذكور ، وكان زمن الربيع وقت الصيد ، وأمر بتجهيز الجوارح ، وتجريد من اختاره لصحبته من أمرائه الخواص وغيرهم ، وقيل له أن بِتلك الجهة وباءً وتَغيّراً ، فلم يثنه ذلك عن قصدها ، وتقدمه وزير دولته شمس الدين بن السلعوس ، وكان هذا الوزير بزازا بدمشق ، وصار تاجرا يتردد إلى الديار المصرية ، وتولى أشغال الملك الأشرف بدمشق فى حياة والده ، ثم انتقل إلى نظر ديوانه وبابه ، فتعاطى الكبرياء والحمق ، وأبدى سوء العِشرة وضيق الخلق ، وأزوى إلى ديوانه شيئا من الحمايات ، وتعرّض إلى بعض اقطاع المقطعين ، فأجراه مجرى المشتراوات ، وحصلت فيه الشكاوى من الأجناد ومقطعى تلك البلاد ، فأنكر السلطان الشهيد على ولده بسببه ، وأنكر الأمير حسام الدين طرنطاى وصرفه عن خدمة الملك الأشرف ، وأراد الإيقاع به ، فهرب وتوجه إلى الحجاز الشريف . وقيل إنه كتب إليه كتابا ، وبخطه بين سطوره « ياشقير ياوجه الخير ! تعجّل بالحضور لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية » . ولما حضر ، فوضّ إليه الوزارة ، وعظمت منزلته عنده ، وترفّع على

---

(١) هو بطريرك الأرمن ويسمى الكاثوليكوس أو الجاثليق ، وبالأرمنية الكاثاغيكوس .

الأمراء ، وتعاطى مالم يتعاط غيره من الوزراء ، وحصل بينه وبين الأمير بدر الدين بيدرا شنآن [١] ، واعتمد عناده والسعى به عند السلطان . ولما توجه ابن السلعوس الوزير بين يدى السلطان لتجهيز الإقامات ، وتحصيل الأموال ، فلم يجد فى الحواصل السلطانية والمعاملات الديوانية ما يكفى الوظائف التى يُحتاجُ إليها ، والإقامات التى توجّه بسببها ، ووجد للأمير بدر الدين بيدرا شيئا كثيرا من الحواصل والأموال والغلال بكل إقليم ، فصار يشى به عندْ السلطان ، ويقول له هذه الأقوال حتى إنه أوغر صدره وملأ بالموجدة على المشار إليه قلبه . وأنكر السلطان على بيدرا وسبّه ، وصار يُظهر له الإنكار تارة ويُبطنه أخرى . وكان بيدرا قد أذكى العيون لرصده ، ورتب أقواما من الخاصكيّة لسماع ما يقوله فى حقّه ، وكانوا يُطالعونه بكل ما يَفُوه وما يُجيبُه السلطان به . ولم يكن السلطان صحبة بيدرا فى هذه الدفعة لمرض عراه ، ولما عاد السلطان من هذه السفرة جهزّ له بيدرا ضيافة عظيمة ، وقدم له تقادِم نفيسة من جُملتها خيمة اتخذها من الأطلس ، وتأزيرها من الوشى المذهب ، وأطنابها من الإبْرَيْسَم الملَّون ، وعمدها من الصندل الأحمر مصفحة بصفائح الفضة المطُلاة بالذهب . وضربت هذه الخيمة بالعَدَوّية [٢] قبلى مصر المحروسة على شاطىء النيل . ونزل السلطان إليها ، ولم يعبأ بها ولا بما قدمه من التقادم لما أوقره الوزير فى صدره ، وألقاه إلى سمعه . وظهر لبيدرا تغيّر السلطان ، وأسرّهُ فى نفسه ، وشرع فى الاتفاق مع الخاصكية على قتله . وكان السلطان عند عوده من الصعيد قد أمسك الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وأعدمه ، وأمسك الأمير ركن الدين طقصوا وأعدمه ، وأمسك الأمير حسام الدين لاجين وأودعه الاعتقال ، وأرسل

---

(١) الشنآن : البغض .

(٢) هى بلدة صغيرة على صفة النيل الغربية بالقرب من بركة الحبش ، وهى ما بينها وبين طرة ، انظر ابن دقماق ، الانتصار ، ٤٣/٥ .

إليه من يخنقه فى الجُبّ بوتر ، فلما خنق أزبَدَ ، وظُنّ أنه مات ، فخُلّىَ عنه ، وأراد الله حياته ، وشفع فيه بدر الدين بيدرا ، فأجيب سؤاله ، وأحضره بين يديه فى ملأٍ من الأمراء الأكابر والأصاغر ، وسلّمه لبيدرا ، وقال له : خذ هذا يكون لك مملوكا ، وافتصل به . والمذكور كان أكبر من بيدرا منزلةً ، فأثر هذا القول فى نفسه ، واتفقوا عليه جميعا .

وفى ثالث المحرم سنة ٦٩٣ هـ ، خرج للصيد ، ولما وصل إلى تروجه أعطى الأمراء دستورا ليتوجهوا إلى جهاتهم ، ويتفرقوا فى إقطاعاتهم . وكان الوزير المذكور قد تقدم إلى الاسكندرية لتجهيز الإقامات ، وتحصيل الأقمشة والاستعمالات والأموال التى يُحتاج إليها برسم الانعام والإطلاقات [١] . ووردت كتبه من هناك بأنه لم يجد بالثغر مالًا ولا قماشاً بحكم أن نواب بيدرا استولوا على المتاجر والاستعمالات ، فاشتد غضب السلطان ، وأحضر بيدرا وشتمه أبلغ شتمٍ . ولما خرج من قُدامِهِ علم أنه أنكاه ، فأراد أن يتلافاه ، وأرسل إليه ألف دينار ، فلم يفد ذلك العطاء ، ولا استدرك فارط الخطاء . واتفق بيدرا مع الأمراء الذين حوله ، والطائفة التى تسمع قوله . ومن غد ذلك اليوم ، ركب السلطان إلى الصيد فى عدّة قليلة من صغار المماليك الخاصكية الذين كان جانِحاً إليهم ، وعاطفا عليهم ؛ فلاحت لبيدرا الفُرصة ، فركب وركب مَعَهُ من الأمراء حسام الدين لاجين المنصورى ، وشمس الدين قراسنقر المنصورى ، وقد كان السلطان عزله من نيابة المملكة الحلبية وله فيها من حياة والده ، والأمير سيف الدين بهادر رأس نوبة ، والطنبغا رأس نوبة ، ونوغيه السلحدار ، واقسنقر الحسامى ، ومحمد خواجا وغيرهم ، وتوجهوا إلى الجهة التى قصدها السلطان على أنهم يتصيدّون ، ولم يكن قصدهم إلا صيده ، ثم أدركوه ، فلما رآهم

---

(١) جمع إطلاق وهو قطعة أرض تمنح وتعفى من جميع أنواع الضرائب .

استشعر ووقف ، فوثبوا عليه وثوب الأسود ، وثاروا عليه كالأراقم [١] السود ، وبادره بيدرا بضربة ، فرده السلطان بزخمة طبل باز فقطع أذنه بجرح سالم ، وتقدم حسام الدين لاجين المنصورى فضربه ضربة قطعت عاتقه ، وأوهت علائقه ، وطعنه الناق المنصورى فى جوفه بسيفه فسقط صريعا . وكان مقتله فى ثالث عشر المحرم سنة ٦٩٣ هـ .

وأما بيدرا فإنه أراد السلطنة لنفسه وتَسَمَّى بالملك الظاهر . وتوجه هو ومن معه إلى الطّرانة [٢] ، ووصل الخبر إلى من كان بالدهليز من المماليك السلطانية والأمراء ، فركبوا جميعا وهم : الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وبدر الدين بكتوت العلائى ، وحسام الدين أستاذالدّار ، وسيف الدين بُرلغى ، وصادفهم الأمير زين الدين كتبغا ، فإنه كان قد توجه بمفرده إلى الصيد ، ولم يعلم ما جرى ، فأعلموه وصاروا طلباً واحداً فى عدّة تناهز ألف فارس . ولم يكن مع بيدرا غير أولئك القوم الذين ركبوا معه لقتل السلطان . فبينما هو سائر فى الحاجر [٣] طالبا القلعة تاه الدليل فى الليل ، ولم يزل تائها إلى الصُبح . ولما أصبحوا وجدوا أنفسهم قبالة الطرّانة ، وظهر لهم الطلب الذى فيه هؤلاء الأمراء ، فقصد بعضهم بعضا ، والتقى الجمعَان ، فتفللّ عن بيدرا من كان معه من الأمراء ، ولم يبق حوله إلا نفران أحدهما أيبك مملوك طقصوا ، والآخر أيدغدى شقير الظاهرى ، ويُعرف بالمسعودى ، فقتل وقتلا . وقيل إن بيدرا المذكور لمّا قُتل ، نزل الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار ، وأخرج كبده من صدره ، وأكل منها قطعة . وأما الأمراء الذين كانوا معه ، فإنهم انهزموا

---

(١) جمع أرقم ، وهى أخبث الحيّات ذات السواد والبياض .

(٢) بالقرب من بركة النطرون ، انظر ابن دقماق ، الانتصار ، ١٠٣/٥ .

(٣) الطريق الواقعة على الجانب الغربى لوادى النيل بالوجه القبلى والفيوم والبحيرة ، انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٣ /٩٢١ ، الحاشية ١ .

وتفرقوا ، ونهبت أثقالهم وخيامهم ، وتشتّت شَملُ مماليكهم وألزامهم . ورجع الأمير زين الدين كتبغا ومن معه من الأمراء والمماليك إلى جهة القلعة . ولما وصلوا إلى الجيزة ، وأرادوا التعدية ، وجدوا الأمير علاء الدين سنجر الشجاعى لمّا سمع الخبر وهو بالقلعة ، أمر بأن تمنع المراكب من التعدية إلى البر الشرقى ، فلم يجدوا إلى التعدية سبيلا ، وراسلوه فى الاتفاق ، وحلف بعضهُما لبعض ، وفسح لهما فى التعدية . ولما طلعوا إلى القلعة اجتمعت الآراء على أن تكون السلطنة للملك الناصر أخى الملك الأشرف ، حفظاً لنظام البيت ، وإحياءً لذكر الميت . وأحضرت رأس بيدرا ، وطِيف بها المدينتين .

* * *



السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد
ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون
الألفى الصالحـــى

كان جلوسه فى شهر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وكان عمره يومئذ تسع سنين . واستقر الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة وأتابك العساكر ، والأمير علم الدين الشجاعى وزيرا ومدبراً للدولة ، والحاج بهادر السلحدار حاجبا . وتطلبّوا من كان مع بيدرا ، فأمسكوهم وهم : طرنطاى الساقى ، ونُوغيه السلحدار ، والطنبغا الجمدار ، واقسنقر الحسامى ، والناق الحلبى ، ومحمد خواجا ، وقجقر أمير مجلس ، وأروس السلحدار ، وقطعوا أيديهم ، وصلبوهم ، وطيف بهم على الجمال فى الشوارع ، وشُفع فى بعضهم ، فأُنزلوا عن الخشب ، ثم أعيدوا إلى الصلب نكالا بما فعلوا من الغدر بسلطانهم ، والإقدام على عدوانهم :

قضى الله أن البغى يصرع أهله   وأن على الباغى تدور الدوائر

وضُربت رقاب الأمير سيف الدين بهادر رأس نوبة ، والأمير جمال الدين أقُش الموصلى الحاجب ، وأُحرقت أجسادهم . وأما الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، والأمير شمس الدين قراسنقر ، فإنهما تحيّدا ولم يقعا ، وكانا بالقاهرة يتنقلان من دار إلى دار .

وكان الأمير علم الدين الشجاعى لمّا ولى الوزارة فى الدولة المنصوريةمال إلى المظالم والمُصادرات ، واغتصاب الأموال ، واحتجانها بالعسف والعنف ، وارتفعت الألسن بالدعاء عليه . ثم أنه لمّا جلس فى هذه الدفعة ، استمال إليه جماعة من الأمراء ، وأطلق بقلمه أشياء كثيرة ، واستبد برأيه فى القبض على بعض الأمراء وهم : الأمير سيف الدين قفجاق ، والأمير بدر الدين عبد الله

السلحدار ، والأمير سيف الدين بورى ، فلم توافق أفعاله رأى بقية الأمراء . وحضر من بطانته اثنان خصيصان به إلى الأمير زين الدين كتبغا بالموكب وهما : قنغر وجاروشى ولده ، وعرّفاه أن الأمير علم الدين اتفق هو وألزامه على قَبْضه وقَبْض جماعة من الأمراء عند الخوان [١] . وللوقت خرج الأمير زين الدين من سوق الخيل إلى براً تحت القلعة قريبا من التغُرة ، وانضمت إليه جماعة كبيرة من الأمراء وغيرهم . وركب الأمير علم الدين من القلعة ومعه طائفة أخرى ، وتناوشوا القتال تحت القلعة ، ولم يعدم منهم أحد . ولم تزل جماعة الشجاعى تتفلّل ، وجماعة الأمير زين الدين كتبغا يكثرون ، وأقاموا على ذلك أسبوعاً ، ولم يُجرح ولا نفر واحد . ولما رأى الشجاعى أنه مغلوبُ الحيلة ، دخل إلى باب الستارة ، ورمى سيفه ، ونزع درعه ، وقال : إن كنت أنا المطلوب ، فها أنا أتوجه إلى السجن ! . فأخذه الأقوش السلحدار المنصورى ، وصمغار ، وبعض المماليك الذين كانوا معه فى القلعة ، ومضيا به إلى السجن ، وقتلاه فى الطريق داخل باب الحديد ، واجتزت رأسه ، وأرسلت إلى كتبغا ، وطيف بها القاهرة ومصر على رمح ، كما طيف برأس بيدرا . وجرى فى أثناء ذلك حديث بين السلطان وكتبغا ، وكثرت الرسائل بينهما إلى أن وافق على عود المشار إليه إلى القلعة ، واستقراره على حاله .

ولما بلغ الأمير زين الدين كتبغا عن المماليك السلطانية ما أوجب تغيّره عليهم ، أخرجهم من القلعة ، فأسكن طائفة منهم بالكبش ، وطائفة بدار الوزارة ، وطائفة بالميدان . ولما تفرقوا تمزقوا ، وتعددّت رواتبهم ، وتأخّرت جامكياتهم ، وحصل النقص والخلل فى أحوالهم ، فاتفقوا وركبوا من الكبش فى تقدير ألف فارس ، ودخلوا المدينة ، ونهبوا بعض الاسطبلات ، وكسّروا بعض الأبواب ، وخلّصوا من كان مسجوناً من خوشداشيتهم ، وتوجهوا إلى الذين

(١) قال المقريزى فى السلوك ١-٣ : « وقت الجلوس على السماط » ، انظر من ٧٩٩ .

يُقيمُون بدار الوزارة ، فلم يوافقوهم ، وأدركهم الصبح ، فركب الأمراء والعسكر ، وأحاطوا بهم من كل مكان ، فأمسكوا ، وأُخِذَ اثنان من كبارهم كانا سبب الفتنة أحدهما يسمى ساطلمش ، والآخر كتبغا الحموى ، فعوقبا وقتلا ، وبقيّة المذكورين فرّقوا على الأمراء والمُقدمّين ، وشُتّت شملهم ، وضوعف نكالهم وذلهم جزاء بما أثاروه من الفتنة ، وحسما لمادة من يتطاول إلى مثلها ، أو تحدثه نفسه بفعلها .

* * *



الملك العادل زين الدين كتبغا

كان جلوسه يوم الأربعاء تاسع المحرم سنة ٦٩٤ هـ ، وذلك أنه اتفقت هذه الأمور ، أشار بعض ألزامه عليه بالجلوس على سرير السلطنة ، فوافق على ذلك ، وخلع السلطان الملك الناصر ولد أستاذه الذى أنشأه ، وفى نعمته ربّاه ، و [لم] يرع حقه ولا أباه . وأسكنه دارا بالقلعة لا يراه أحد ، ولا يجتمع به ، فكان معتقلاً فى زى، مطلق . وكان المشار إليه تلطّف مع السلطان والأمراء فى ظهور الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير شمس الدين قراسنقر ، فظهرا بعد طول الاختفاء ، وعاملهما بالإلمام والاحتفاء ، فرتب الأمير حسام الدين فى نيابته لما كان بينهما من الإلمام والود ، وكونهما تربيا من صغرهما ، وكانا كروح فى جسدين ، وكان كل منهما يدخل إلى حريم الآخر بإدْلال الأخوّة . وأعطى الأمير شمس الدين إقطاعا ، ثم أمّر مماليكه وخوّلهم ، ولم يسلك بهم ما سلكه السلطان الكبير رحمه الله بمماليكه من التدريج ، وأعطى أحدهم ، وكان يسمى بتخاص ، مائة وجعله أستاذ الدار ، وأظهر من التعاظم والأنفة ما لا تحويه الصفة . وكذلك بكتوت الأزرق أمرهُ بمائة وخوّله ، وكانت إحدى مُقْلتيه زرقاء ، والأخرى سوداء .

وفى أيامه قَصَّر النيل بالديار المصرية ، ولم يُكمل ستة عشر ذراعاً ، ولم يثبت على البلاد . واتفق الغلاء العظيم [1] الذى لم يُسمع بمثله . وانتهى سعر القمح إلى مائة وسبعين درهما الأردب ، والشعير والفول إلى مائة درهم الأردب إلى ما دونها ، وبيع الترمس بأربعين درهما نُقْرة [2] الأردب ، وتهالك الناس ،

(١) انظر التحفة ، ص ١٤٤ ، وخطط المقريزى ، ١-٣ ، ص ٨٩ .

(٢) الدرهم من الفضة الخالصة .

ومَسّهم الجهد ، وأكلوا الجيف والميتة والكلاب والقطاط . وقيل إن بعض الناس أكلوا أولادهم . ثم أعقب ذلك وباء عظيم ، ومات من الديار المصرية خلق لا تُحصى ، وخلا بعض البلاد من سُكانها ، وامتلأت الأرض من الأموات بين حيطانها . وكان أكثر من يموت بالقاهرة ومصر لا يجد من يدفنه بل يبقى مُلقى على قارعة الطريق إلى أن تأكله الكلاب ، وبعضهم يُطرحون على الكيمان . واستمر ذلك من سنة أربع وتسعين إلى سنة خمس وتسعين وستمائة . ولقد شاهدت الناس يبيعون لحم الميتة على باب القّراطين [١] ، ورأيت أقواما كلما أُخرِج شيء من جيف الميتة بادروا بسلخه وأكله . وشمل المحل الوجه الغربي وبرقا وما معها حتى إن أهلها أجفلوا إلى الديار المصرية ، وصادفهم بها الوباء ، فلم ينج منهم أحد . وأما مملوكا العادل المذكوران ، فإنهما أمرا ونهيا وتحكما فى الدولة ، وأفسدا نظام المملكة ، وغَلبَا على رأى مخدومهما ، وأساءا السيرة ، واحتجنا الأموال ، واستهانَا بالأمراء ، واستبدّا بالآراء . وكان ذلك سببا لتغير الأمراء ، والاتفاق على قتله .

وفى أواخر سنة ست وتسعين وستمائة ، توجّه إلى الشام ، وخرجت العساكر صحبته . ولما وصل إلى دمشق عزل الأمير عز الدين الحموى من نيابة السلطنة ، وولى اغرلو مملوكه . وقدم له الأمير عز الدين المشار إليه من الخيل المُسّومة ، والجرد المطهمة ، والأقمشة المُعلمة شيئا كثيرا جدا ، فلم يؤثر ذلك عنده ، وأخذ منه ومن ألزامه شيئا كثيرا . وقدّمت له الأمراء تقادم كثيرة من خيل وقماش ، فلم يعمل معهم ما جرت به العادة من حسن الجزاء والمكافأة بالخلع والعطاء كما تفعل الملوك أوّل قدومهم إلى دمشق وغيرها . فتضاعفت موجدتهم ، وتكاملت بغضتهم ، فاتفقوا جميعا عليه . ولما عاد من دمشق ،

---

(١) أو الباب المحروق ، وهو من أبواب القاهرة – انظر المقريزى ، الخطط ٣٨٣/١ .

ووصل إلى بدّعرش ، وهو ماء العوجاء [1] ، اتفق الأمراء المتواطئون عليه ، أنهم يركبون ويقصدون الدهليز ، فإن نالوا قصدا ، وإلا يتوجهّون إلى الشام قبل أن يتمكن منهم الفساد ، [ويجتمع] عليهم الأعداء والأضداد . فركبوا صحبة الأمير حُسام الدين لاجين المنصورى ، لأن مماليك السلطان المشار إليهما كانا قد حسّنا للسلطان إمساك الأمير حسام الدين المذكور ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، ولم يوافقهُما السلطان ، واستصحب المشار إليه شخصا من أكابر المماليك السلطانية الذين كانوا بدار الوزارة يسمى كرجى ، كان قد ألف له قلوب خوشداشيته ، وتوجهوا إلى جهة الدهليز ، وسبق كرجى إلى خيمة بكتوت الأزرق فى جماعة عن المماليك ، فأدركوه داخل خيمته ، فهجموا عليه وقتلوه . وأحس السلطان بهذه الواقعة وهو داخل الدهليز ، فاستصرخ بالذين فى الاسطبل ليشدوا الخيل ، فشُدّت وركب ، وحضر بتخاص فقتل ، وفر السلطان هاربا إلى دمشق ، وأوى إلى غَرلو النائب بدمشق مملوكه . ثم توجّها معا إلى صرخد . واتفق الأمراء على سلطنة لاجين المنصورى ، وأخذوا عليه العهود ، قرر معهم أنه يكون كأحدهم ولا يُحّكم عليهم أحدا ، ولا يستأثر بنفسه عنهم . فقال له سيف الدين قفجاق : نخاف أن تقول هذا القول اليوم ، وفى غد تغيّره ، وتُحكم علينا مماليكك ، ويجرى لنا معهم ما جرى لنا من مماليك كتبغا ! فالتزم أنه لا يفعل ذلك جملة كافية ، وتحالفوا [2] .

* * *

---

(١) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ١٦٧/٤ .

(٢) وانظر ماجاء فى هذا الشأن لابن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٤٣٣ ، وما أورده المقريزى فى السلوك ١-٣ ، ص ٨٢٢ .

السلطان الملك المنصور
حسام الدين لاجين المنصورى

ولى السلطنة فى العشر الأوسط من المحرم سنة ٦٩٦ هـ . والمذكور أولا كان مملوك الملك المنصور نور الدين على ابن الملك المعز ، ولما خلعه الملك المظفر من السلطنة ، نهبت مماليكه ، وتفرقها الأمراء . فأخذ المذكور شخصٌ من المغرية يسمى علاء الدين أيدغدى فربّاه ثم باعه للملك المنصور قلاون ، وهو يومئذ أمير فى أوائل الأيام الظاهرية . ولم يزل فى جملة المماليك المنصورية إلى سلطنة الملك المنصور ، وولاه نيابة السلطنة بدمشق ، واستمر بها إلى أن عزله الملك الأشرف . ولما وصل إلى القلعة ، واستقر فى الملك ، أخرج السلطان الملك الناصر من القاعة التى تركه كتبغا فيها ، وأرسله إلى الكرك ليقيم بها صحبة الأمير سيف الدين سلار الصالحى ليوصله ويعود . ثم قبض على الحاج بهادر ، وولى مكانه الأمير سيف الدين بُرلغى وأمّره بدمشق ، وأمّر سيف الدين منكوتمر مملوكه ، وبعض مماليكه ، ولم يولِّه فى أول الحال أمراً . وكان يسعى بالأمير شمس الدين قراسنقر وينم عليه طلباً لمنصبه ، وحسداً له على إلمامه به . فأثرت نميمته فى نفسه ، واستوحش منه بعد أُنسه ، مع ملازمته للسلطان ليلا ونهارا ، وبعد الأمير شمس الدين عنه . فلم تمض له من سلطنته عشرة أشهر حتى قبض عليه ، واعتقله وفوّض نيابة السلطنة إلى منكوتمر مملوكه ، وخرج عن مواثيقه وعهوده ، وما أسلفه للأمراء من وعوده ، وقبض على الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، والأمير عز الدين الحموى ، والأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهرى ، كل ذلك بسعاية منكوتمر ووشايته . ومنكوتمر هذا [كان] فى نوبة حمص ، أخذه شخص تركمانى يسمى عمر فباعه للملك المنصور حسام الدين لاجين ، وهو يومئذ نائب السلطنة بدمشق ، وبقى فى خدمته هو ومملوك آخر يسمى

اقسنقر ، وهو الذى أخذه منه الملك الأشرف ، وأمّره ، وصُلِبَ بعد وفاته . وأما منكوتمر فكان شكله دميما ، وفعله ذميما ، ووجهه عابسا ، وخلقه يابساً . وقد ألقى الله مقتَهُ فى القلوب . ولما ولى نيابة السلطنة استحوذ على عقل مخدومه ، وحجبه عن الخاصة والعامة ، وانفرد بالنهى والأمر ، واستبد بالإعطاء والمنع ، وانتهى أمره إلى أن كان إذا رَسَم مخدُومه بمرسوم لم يكن بإشارته ، يُعطله ويوقفه ، ولا يعمل به ولا يُصَرِّفه ، وإن أقبل على أحد فى غيبته ، أو خص إنساناً بهبته ، أبعد ذلك الشخص ودَحَره وأقصاه وأخّرَهُ ؛ وأمر بأن تحمل الأموال الديوانية إلى داره ، فكان النضر منها يُحمل إليه ، ولا يحمل إلى بيت المال إلا ماهُو من الجهات المُتعذرة ، والنقدات المُستنزره . وفى أيامه اقتضى الحال تحويل السنة الخراجية سنة ٦٩٦ هـ إلى سنة ٦٩٧ هـ ، على عادة ديوان الديار المصرية [١] ، وهو تحويل لفظى بالكلام تنطق به ألسنة الأقلام ، وذلك لما بين السنة الشمسية والأشهر الهلالية من التفاوت فى الأيام .

وفى أيامه جرى الحديث فى روك الديار المصرية [٢] ، وتغيير الإقطاعات الجيشية لأن نظامها كان قد فسد ، وحال البلاد وفلاحِيها درج وكسد . فجمع منكوتمر المُشار إليه النُظّار والمستوفين فى داره أياما إلى أن راكوا الديار المصرية ، وأُفرد برسم الخاص السلطانى نواحى الأعمال الجيزية والأطفيحية لأنها كانت قديما جارية فى الخاص ، وثغر الاسكندرية ودمياط ونواح مُعينة من الأعمال الشرقية والغربية والبحيرة وتروجه والبلاد القبلية بما يناهز ثلث الارتفاع [٣] . وأفرد منكوتمر بخاصّه وأجناده جملة كبيرة ، وجهات مثمرة ، فحصل للجند مشقة عظيمة لانتقالهم عن إقطاعاتهم التى ألفوها ، وجهاتهم التى عرفوها ، إلى بلاد

---

(١) انظر المقريزى ، السلوك ، ١-٣ / ٨٤٥ والحاشية ١ .

(٢) وهو الروك الحسامى ، انظر المقريزى ، خطط ٨٧/١ .

(٣) وهو ما يتحصل من الدواوين عامة .

لا خبرة لأكثرهم بها ، ولا قعوة [١] لمعظمهم فيها ، وخروج بعضهم عن أرض عامرة إلى أرض داثرة ، وبلاد دانية إلى بلاد قاصية . وقبلوا ذلك بالرُغم ، وتروّد الغم ، فمنهم من سعد جدّه ، ومنهم من كبازنده ، وخبا وقده . ثم إن منكوتمر قصد إبعاد الأمراء الأكابر ، فحسّن لمخدُومه أن يُجرّد عسكراً إلى سيس لفتحها ، فجرّد الأمير بدر الدين أمير سلاح ، والأمير شمس الدين كُرتيه ، والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار ، وتقدم إلى العساكر الشاميّة بالتوجه معهم ، فتوجه معهم عسكر دمشق صُحبة الأمير سيف الدين قفجاق نائب السلطنة بها ، وعسكر صفد صحبة الأمير سيف الدين البكى الساقى الظاهرى نائب السلطنة بها ، والأمير سيف الدين عزاز الصالحى وغيرهم . وأغاروا على بلاد سيس ، وفتحوا بعض قُليعات لا يؤبه بها وهى : تل حمدون ، وحمّوص ، وقلعة نجم ، والمصيصة ، وسروندكار ، وحجر شغلان [٢] ، وهذه الأماكن لا تفى بما كان مقررا على متملك سيس التى كان يحملها إلى الخزانة السلطانية فى كل سنة ، وذلك أن الذى كان مقرراً عليه فى كل سنة خمسمائة ألف درهم حجراً وعِدة من البغال وتطابيق النعال . وكان داخلا تحت الذمة ، باذلَ الطاعة والخدمة ، فلما فتحت هذه الأماكن الحقيرة ، قطع كل ذلك المقرّر ، وكان من أمره ما سيذكر . ورتبوا فيها أقواما تسحب بعضهم فيما بعد وتركوه ، وعاد الأرمن إلى ماخلا منها ، وغلبوا عليه ، وربما وجدوا أقواما من الرجال المسلمين المركزين فقتلوهم . وكانت الإغارة المذكورة فى سنة ٦٩٧ هـ .

وفى السنة المذكورة ، ظهر بالديار المصرية من الفأر [٣] ماملأ الأقطار ، وكان الوقت قريب الحصاد ، فساح على البلاد ، واستهلك الزرع ، وأتى على

---

(١) والجمع قعىّ ، وهى أصل الفخذ .

(٢) ورد ذكر كل هذه القليعات فى زبدة الفكرة ، الورقة ١٩٦ .

(٣) انظر التفاصيل فى زبدة الفكرة ، الورقة ١٩٧ .

معظمه ومحقه ، وقد قيل إنه كان يستهلك من البلد الواحد الجملة الكبيرة من الفدادين ، فلا يغادر فيها سنبلة قائمة ، وربما سابق الفلاحين إلى استهلاك زرعهم ، حتى أن بعضهم كان يقصد معاجلتهم ويبيت ، وزرعه قائم وحرثه سالم ، على أنه يباكر إلى حصاده ، ويبادره قبل فساده ، فيمحقه الفار تلك الليلة ، فلا يغادر منه شيئا . وقصّر متحصل الغلال فى هذه السنة ، وأوجس الناس خيفة من ضرره ، وذعرا من سوء أثره ، فأباده الله تعالى ، وزال عند قرب زيادة النيل كأن لم يكن .

وفى هذه السنة ، أوهم منكوتمر مخدومه من الجماعة المُجردين إلى سيس ، وأشار عليه بأن يُسّير من يقبض على بعضهم ، ومن يسقى بعضا ، هذا وهم بالقرب من وسط الفرات ، وتجاه العدو ، وقد عادوا من غارة وغزاة ، فوافقه على ذلك ، وظنّ أنهُ مناصحه ، أو تحته مصلحة ، ولم يتبين عواقبه . فلما شعر الأمراء بما دُبّر عليهم ، وأرسل إليهم ، اتفق الأمير سيف الدين قفجاق ، وفارس الدين البُكى ، وسيف الدين بكتمر السلحدار ، وسيف الدين عزاز ، وعدّوا الفُرات ، وتوجهّوا إلى قازان ملك التتار ، فقبلهم وأقبل عليهم ، وَوَصَلَهُم وأحسن إليهم ، وزوّج كل منهم بامرأة من التتار . فأما قفجاق فزوّجه بأخت زوجته ، وهى أخت إيل خان ، وهذا إنما تعمله التتار مع الأكابر والخانات أن يتخذوهم أصهارا ، ويزيدوهم بذلك تمييزا واعتبارا ، وأقاموا عنده إلى أن قصد البلاد الإسلامية ، وحضرا معه إلى البلاد الشامية .

وقتل الملك حسام الدين لاجين ليلة الجمعة الحادى عشر من ربيع الآخر سنة ٦٩٨ هـ ، وذلك أن بعض الأمراء اجتمعوا إلى طغجى وهم كرجى وطعيه السلحدار صهر طغجى ، ومن معهم ، وشكوا له إساءات منكوتمر ، وسوء اعتماده وعمله على الأمراء واحدا بعد واحد ، فتشاوروا فى قتله ، وقالوا : إن قتلناه نخشى من مخدومه لأن هذا عنده بمحل الولد ، وهو مملوكه وولى عهده . فألجأهم

ذلك إلى أن اتفقوا على قتل السلطان أولا ليتمكنوا من منكوتمر فيقتلوه ثانيا ، فدخل عليه كرجى المذكور ومن وافقه فى الليلة المُقدم ذكرها ، وهو يلعب الشطرنج مع شخص يسامره من المُتعممين [١] ، ويساهره كُلّ وقت وحين ، فبينا هو قد توضأ لصلاة عشاء الآخرة ، إذا هم قد أخذوا نمجيَّه [٢] من قدامه ، وعلوه بالسيوف ، وقطّعوه قطعا ، وغادروه بضعاً ، وتركوه وخرجوا من فورهم إلى منكوتمر ، وهو بدار النيابة ، وقد أغلق أبوابه ، واستدعوه فنزل عندما شاهد اجتماعهم عليه ، ودخل إلى طغجى مستجيرا ، فإنه كان ساكنا بدار الملك بجواره ، فأجاره طغجى من القتل ، وأرسل إلى السجن . ولما توجهّوا به إلى الجُبّ ، وأدلوه فاستدرك كرجى فارطه وقال : نحن إنما قتلنا أستاذه لأجله ، وما كان له إلينا إساءة تقتضى قتله . ثم إنه بادر إليه ، وأطلعه من الجب ، وأتكاه عند باب الجب وذبحه من وراء قفاه . وتقرر إحضار السلطان الملك الناصر من الكرك ، وإعادته إلى السلطنة ، والأمير سيف الدين طغجى فى نيابة السلطنة ، وأُرسل سيف الدين الملك أحد المماليك السلطانية إلى الكرك لإحضار السلطان منها كما تقرر .

وقتل طغجى المشار إليه فى العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة سنة ٦٩٨ هـ ، وذلك أن الأمير بدر الدين أمير سلاح ومن معه من الأمراء الذين كانوا قد عادوا من بلاد سيس كانوا إذ جرت هذه الخطوب واصلين فى الطريق ، وكان فى نفس بعض الأمراء من تقدم طغجى عليهم ، وتطاوله إلى النيابة دونهم ، فقالوا له : إن العادة جارية بأنه إذا عاد أحد من الأمراء والعسكر المنصور من البلاد الشامية من غارة أو غزاة أو تجريد تخرج

(١) وهو الإمام نجم الدين بن العسال ، انظر المقريزى ، السلوك ١-٣ / ٨٥٦ .

(٢) النمجاة عبارة عن خنجر مقوس شبه السيف القصير وهو معرب من اللفظ الفارسى نيمجه ؛ ويقال أيضا نمجا ونمجه ، انظر النهج السديد ص ٤٤٨ .

نواب السلطنة للقائهم جبراً للقلوب ، وجرياً على هذا الأسلوب . ولما خَرّجوا طغجي ومن معه إلى لقائهم ورأوه الأمراء المجردين ، فأشاروا بعضهم إلى بعض ، ووثبوا عليه وقتلوه مكانه . وأما كرجي لما بلغه ما فُعل بطغجي هرب سائقا إلى جهة بركة الحبش وبساتين الوزير ، فساقوا خلفه ، وقتلوه عند مقابر النصارى واليهود . وجلس الأمراء يتحدثون فى الدولة جميعا ، ويكتبون الكتب والمراسم إلى الولاة والنّواب ، فتشملها علاماتهم ، والكلمة منتظمة ، والمصالح ملتئمة ، وهم على انتظار السلطان ، إلى أن حضر إلى القلعة .

* * *



السلطان الملك الناصر بن الملك المنصور
قلاون

و [كان] جلوسة ثانيا فى الحادى عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ . واستقر الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار العالية ، والأمير سيف الدين قطلوبك حاجبا ، والأمير جمال الدين أقُش الأفرم نائب السلطنة بالبلاد الشامية ، وسيف الدين كرد أمير أخور نائب السلطنة بالفتوحات الإسلامية والأعمال الساحلية . وفى الشهر المذكور ، نفُق فى العساكر نفقة عامة كانت جملتها من الذهب المصرى أربعمائة ألف دينار .

وفى أواخر السنة المذكورة ، تواترت الأخبار بحركة التتار ، وخرج السلطان والعساكر فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٩٩ هـ ، ولما وصلوا إلى غزة ، قصد بعض الأوراتية (١) ، وهم التتار الذين وفدوا إلى الديار المصرية فى أيام الملك العادل زين الدين كتبغا ، وكانوا من أقوى أسباب زوال دولته ، فثارت جماعة منهم لإثارة فتنة باتفاق شخص من الأمراء يُسمى بُرلطاى ، فشهر المذكور سيفه فى الموكب ، فضربه بعض من حضر بالسيف ، فهرب إلى نحو دهليز السلطان ، فصادف فى طريقه شخصا من نقباء المماليك فقتله . ولما دنا من الدهليز أُمسك وأرسل إلى الأمير سيف الدين سلار ، والأمير بيبرس الجاشنكير ، فقتل لوقته ، وأمسك واحد من المماليك الذين كانوا معه فقتل وقُرّر ، وكان اسمه قطز ، فأقر على جماعة من المماليك ، فأخذوا وأرسلوا إلى الكرك ، فاعتقلوا . وأما التتار الأوراتيّة فشنق من وقع منهم .

---

(١) نسبة إلى « أويرات » ، وهو جنس يطلق على عدة قبائل مغولية ، انظر التحفة الملوكية ، ص ١٤٦ ، والحاشية ١ .

ذكر الواقعة التى كانت فى هذه السنة بمجمع المُروج :

قيل إنه لما وصل العسكر المنصور إلى حمص ، حضر من أخبر أن التتار ركبوا النهر فساقوا من حمص إلى مجمع المروج ، وهو مكان يعرف بوادى الخزندار ، وهو بين حَماه وحمص ، والتتار مكمنون فى الوادى المذكور حتى إذا قاربت العساكر الوادى المذكور بعد ركض شديد ، وسير عنيف ، وعطش كاد يهلكهم ويهلك خيلهم ، وكانت الأخبار غير شافية ، ولمّا ساقوا ووصلوا إليهم ، وقد أعيت الخيول من ثقل العُدد . فلما واجهوهُم ، حَملت ميسرة المسلمين على التتار فكسرتهم . ولقد حدثنى الأمير سيف الدين بلبان الطبّاخى ، تغمده الله برحمته ، وكان بالميسرة ، أنه حال إقبالهم إلينا حَملنا عليهم حملةً انزوَوا لها ، وانقلبوا إلى القلب الذى لهم . فلما رأى قازان ذلك ، انهزم راجعا ، ثم تحامل التتار وحملوا ، وقضى الله أن جاءت ميسرة التتار على ميمنة العساكر ، فانكسرت ، وأحاطوا بالسلطان والقلب ، وفوّقوا نحوهم السِّهام ، فكانت كالشمس إذ ترمى السهام ، فولى المسلمون الأدبار منهزمين ، واستولى التتار على الأثقال ، ونهبوا الخيول والجِمَال ، وكانت قادحة شديدة على الإسلام ، ونائبة عظيمة نابت الأنام . ولم يقتل فى هذه المعركة إلا القليل ، واستشهد الأمير سيف الدين كرد نائب السلطنة بالحصون ، والأمير ناصر الدين بن الحلّى ، والأمير سيف الدين بلبان التقوى النائب بالسواحل ، والأمير ركن الدين العلمى الذى كان نائبا بالمرقب ، وجمال الدين أقش الكرجى الحاجب . وبعد انقضاء الوقعة ، قتل الأمير بدر الدين بيليك الطيّار دون جريمة وقت إجفاله من دمشق إلى الكرك . ووقع فى الأمير سيف الدين نوكيه سهم ، فحمله أصحابه إلى طبرية فمات بها . ونجا السلطان بنفسه والأمراء ، وتبددت جموع العساكر ، وحصل العدو على كل مالهم من النِّعَم والنَّعَم ، والعُدد التى ادخروها من القدم . ولما وصلوا إلى حمص ، سلم مفاتيحها إليهم محمد بن الصارم ، واليها ، وفتح لهم

أبوابها ، ووقف فى خدمتهم ، وأخذ منهم أمانا لأهلها . ورحلوا منها إلى دمشق ، وتوجهت طائفة منهم إلى صفد وبيسان وغزة والأغوار ، ونهبوا جميع هذه البلاد ، وأخذوا أموالها وغلالها ومواشيها ، وأسروا شاباتها وشُبّانها ، وفتكوا بالمُسْلمين والمُسْلمات ، وهتكوا المسْتُورات والمُحْصَنات ، وأغاروا على القدس والخليل ، وقتلوا من وجدوه من المسلمين والنّصارى ، وشَربوا فى الحرم ، واستحلوا كُلّ محرم ، وسبَوْا خلقاً كثيرا ، وأخذوا من النساء والصبيان جما غفيرا ، وأقاموا هناك يترددون ويُغيرون ويفسدون إلى أن قدر الله انتزاحهم .

ووردت العساكر إلى الديار المصرية أشتانا متفرقين ، عُراة مُملقين ، وكان وصول السلطان أولا وصحبته الأمير سيف الدين سلار ، والأمير ركن الدين الجاشنكير ، وبكتمر أمير جاندار ، وحسام الدين استاذ الدار ، وعلم الدين الجاولى وغيرهم .

قال المُصنّف المقر الركنى الدَوّادار : وكنت يومئذ نائبا بالقلعة ، ولما وردت إلىّ البطائق بقربهم ، أشعت أنها : مخبرة بالنصرة ، وكتمت عن العوام أخبار الكسرة ، وتقدمت بضرب البشائر بالقلعة إنفاءً للمظنة ، وإخمادا لما لعل السواد يُثيرونَهُ من فساد أو فتنة . ثم تواصلت العساكر كل بمفرده ، وكانت طائفة منهم وقت الرجعة من الوقعة سلكوا على ساحل طرابلس خوفا من اتّباع التتار آثارهم ، فنزلت إليهم الجبليّة من الجبال ونهبوا طائفة بعد طائفة ، وحفَظُوا عليهم مضايق الطُرقات وسلبوهم وقتلوا منهم جماعة ، ومن أفلت من أيديهم تلقته العُربان الذين بالقرب من غزّة وما حولها ، وكملوا نَهبهُمْ ، وجدَدُّوا سلبهم ، فكان ذلك على العساكر أشد نكاية من التتار . ثم تواصلت العساكر الشامية ، فكان أوّل من وصل الأمير سيف الدين بلبان الطباخى نائب السلطنة بالممالك الحلبية ، ومعه وعلى إثره عسكر حلب ، وبعده أقش الأفرم نائب السلطنة بدمشق ، وكراى نائب السلطنة بصفد ، ووصل الأمير زين الدين

كتبغا جافلا من صرخد ، فَرَعَى السلطان حقه ، وتلقاه الأمراء بالإكرام والاحترام ، وأجزلوا له العطاء ، وقلدوه نيابة السلطنة بحماه ، وكان عوده إليها فى مستهل رمضان سنة ٦٩٩ هـ [١] . ووصلت غارة التتار إلى غزّة ، ودخلوا إلى الجامع بها ، وقتلوا به خمسة نفر ، ولطف الله وأعان على تسليك القُصّاد مع انقطاع الطرقات ، وأرسلت الكشافة ، وتوصلت إلى تطمين نفوس النواب الذين بالقلاع ، وكُتب إليه بأن الأمداد واصلة ، والأنجاد بأمرهم حَافلة ، وأراد الله أن ينتهى الأمر إلى سلامةٍ ، ونزح التتار عن البلاد ، وتراجَع الجُفّالُ إلى أوطانهم ، ونفق السلطان فى العساكر نفقة جزيلة ، وغلت أسعار العُدد غلوا عظيما لكثرة احتياج العساكر .

ولما انهزمت العساكر من قُدّام قازان ، وخلت له البلاد ، وتجاوز حمص ، حضر إلى المرج بالقرب من دمشق ، وأقام به وخرج إليه أهل دمشق بمفاتيحها ، وبهدايا جليلة ، فأقبل عليهم ، وأرسل إليها قفجاق وبكتمر السلحدار وقطُلوشاه والملك يحيى بن جلال الدين ، ووزيريه رشيد الدولة المسلمانى ونجيب الدولة اليهودى ، فأقاموا بها وشرعوا فى جباية الأموال من أهلها واستصفائها ، وأرادوا منازلة قلعتها . وكان الأمير علم الدين سنجر أرجَواش المنصورى واليا [٢] بها ، فاحترز عليها احترازا عظيما ، وحفظها حفظا تاما ، وأحرق ما حولها من الدور والعمائر ، فلم ينالوا منها قصداً . وأرسل قازان إلى النّواب بالحصون يستميلهم ، ووصلت فرماناته إلى أكثر الأماكن يعرّفهم فيها أنه من أهل الإسلام ، ويحضهم على طاعته وإلا السيف . وكانت إقامته بظاهر دمشق من سابع شهر ربيع الآخر إلى منتصف جمادى الأولى ، والتتار فى هذه

---

(١) ذكر المقريزى فى السلوك ١-٣/٩٠١ ، أن ذلك حدث فى رابع عشرى شعبان .

(٢) كتب فوقها « نائبا » صح .

المدة يعبثون ويعيثون وينهبون ويفتكون ، هذا وقازان لم يأمرهم بأن يبذلوا سيفاً ، ولا يفشوا أذىً ، وإنما جروا فى ذلك على عاداتهم الردية ، وطباعهم المطبُوعة على الأذية . وفى نصف جمادى الأولى ، رحل راجعا ، وأطلق من كان أسيرا فى معسكره من الأجناد والغلمان والعامة والسوقة وغيرهم ، وتواتروا إلى الديار المصرية زرافاتٍ ووحداناً ، وتواصلوا لا ترى منهم إلا شعثاً عُرياناً . وكنت أشاهدهم كالأموات قد أُنشروا ، والرُفات قد بُعثروا لما مسّهُم من جُهد البلاء . وترك بدمشق الأمير سيف الدين قفجاق ، وولاه النيابة والبلاد الشامية ، وقلّده تقليدا عاما ، ورتب معه الملك يحيى ، وترك قَطلُوشاه بعده ، فأقام أياماً ، وجبيت له أموال من أهل دمشق . ورحل هو أيضا مُشرّقا ، ورُتب الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار فى نيابة السلطنة بالممالك الحلبية والحموية وشيزر وانطاكية وبغراش وسائر الحصون ، والأمير فارس الدين البكى نائب السلطنة بصفد وطرابلس والسواحل ، وأقام مُؤكيه بالأغوار والسواحل إلى أوائل شهر رجب ، ثم توجه بمن معه من التتار إلى بعلبك ، وأغاروا على البقاع البعلبكى ، وتوجهوا إلى بلادهم .

ولما تحقق عود قازان ، خرج السلطان من القلعة فى يوم الخميس عاشر رجب سنة ٦٩٩ هـ ، ووصل إلى الصالحية فى التاسع عشر منه ، وتوجّه الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة وصحبته جماعة الأمراء والعساكر ، ودخلوا الرمّل فى الثانى والعشرين من الشهر المذكور . وعند وصولهم إلى منزلة سكرير ، هاجر الأمير سيف الدين قفجاق والأمير سيف الدين بكتمر والأمير فارس الدين البكى ، بعد أن أرسلوا إليهم قصاداً ، وجددوا معهم أيمانا . ووصل فى البريد الأمير بدر الدين بكتوت الفتّاح إلى الدهليز بالصالحيّة مخبرا بوصول الأمراء المذكورين فى الطاعة ، وانخراطهم فى سلك الجماعة ، وضربت البشائر ، وعم الهناء البادى والحاضر ، وجُبيت بِشَارة [١] لطيفة من أميلاء [٢] البلاد تقديرها

---

(١) ما يعطاه البشير أو المُبشّر .

(٢) أى أغنياء البلاد .

خمسون ألف درهم لاغير . وأنعم على الفتّاح المذكور ببَدرةٍ [١] وخلعة وفرس بسرجه ولجامه . وفى اليوم العاشر من شعبان ، وصل الأمراء المذكورون إلى الصالحية ، وركب السلطان الملك الناصر للقائهم ، وأقبل السلطان عليهم ، وشُرفوا بالخلع الجميلة ، وحوائص الذهب والخيول المسروجة ، ورُتّبت لهم الرواتب ، وعاد السلطان إلى القلعة فى رابع عشر شعبان ، وأسكن الأمراء المذكورين فيها . ولما عاد العسكر صحبة الأمير سيف الدين سلار ، أقطع للأمراء المذكورين الأمير سيف الدين قفجاق نيابة السلطنة بالشوبك وأعمالها ، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار إقطاع بالديار المصرية ، وأُعطى مائة فارس ، والأمير سيف الدين البكى إقطاع بدمشق ، وتوجه كل إلى جهته .

وفى سنة سبعمائة ، وقع على الأبقار بالديار المصرية فناء أتى على أكثرها بجميع البلاد ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، حتى أن أثمانها بلغت قيمة الرأس البقر ألف درهم [٢] نقرة إلى ما دونها ، وتعطلت دواليب السواق ومعاصر الأقصاب ، واستعمل الناس الخيل والجَمال فى السواق . وغلت أسعار القنود [٣] ، ووصلت قيمتها إلى مائة دينار العشرة قناطير .

وفى هذه السنة تواترت الأخبار بحركة التتار ، وتواصل الجُفّال من دمشق وغيرها إلى الديار المصرية لما لحقهم من الذعر من هذا العدو ، وكان إجفالهم فى الشتاء ، وقاسوا فى الطرقات شدائد عظيمة ، وأرسل النواب بسائر الممالك الإسلامية حريمهم إلى القاهرة . ولمّا قويت أخبار العدو ، واقتضت المصلحة النفقة فى العساكر ، وتحصيل ما يُعين على ذلك ، فقُرّر على أرباب المعايش والتجار والباعة ، وذوى الأنساب بالقاهرة ومصر أموالا بحسب أحوالهم ، وجُبى

---

(١) البدرة وجمعها بِدَر وبدور : عشرة آلاف درهم فى كيس .

(٢) ذكر المقريزى أن قيمة الثور ألف درهم ، انظر السلوك ١-٣/٩١٤ .

(٣) أو القِنْد وهو عسل قصب السكر إذا جُمِّد .

منها دون المائة ألف دينار . وكان مباشر هذه الجباية الأمير شمس الدين الأعسر الوزير ، والأمير ناصر الدين الشيخى ، والى القاهرة .

ونفق فى العساكر المنصورة بكمالها . ولما تواتر الجُفّال ، وتفرق الناس فى الديار المصرية ، ظن الناس أن أسعار الغلّة تغلو ، فانحطت أسعار الغلة منذ حضروا إلى أن وصل القمح من سبعة وعشرين درهما الأردب إلى ما دون العشرين درهماً .

وخرجت العساكر فى اليوم الرابع من صفر سنة ٧٠٠ هـ ، ووصلوا إلى بدعرش فى سادس ربيع الأول . وجرى من لطف الله بعباده أن التتار لما وصلوا إلى حلب ، وقيل كان قازان فيهم ، وقيل لم يكن ، وتوالت الأمطار ، وغلت الأسعار ، وضعفت الدواب لعدم الكلأ ، ولكونها لم تجد بالبلاد مأكلا ، فرجعوا جميعا ، وكفى الله المؤمنين القتال . ولما تحقق عَوْدهم وخلت البلاد منهم ، تراجع المسلمون إلى أوطانهم .

وفى هذه السنة ، جُرّد الأمير شمس الدين سنقر الأعسر إلى الوجه القبلى لتمهيد العربان ، واستخراج ما يلوح من الأموال .

قال المُصنّف : واقتضى الحال توجهى إلى البلاد المذكورة ، فأذعن عُربانها إلى الطّاعة ، وقُرّرت عليهم الجِنايات [١] وجُبيت منهم ، فقاموا بها ولم يتوقفوا بسببها . وكانت جملتها من الدراهم النقرة ألفَ ألِفٍ وخمسمائة ألف درهم ، ومن الخيول العربية ألف ومائة فرس ، ومن الجِمَال عدة كثيرة ، ومن الأغنام ما أناف على عشرة ألف رأس .

وفى العشر الأوسط من شهر رجب ، رسمت السلطنة بإلزام أهل

---

(١) أى الغرامات .

الذمة [١] من النصارى واليهود بالديار المصرية والبلاد الشامية بتغيير زِيّهم ، ومنع استخدام الدواوين وأرباب الأقلام منهم ، وأن تصبغ عمائم النصارى زُرقاً ، واليهود صُفراً ، وأن يركبوا الحمير خاصة مُنَفلى الأرجل ، والتنفيل أن يثنى أحدهم رجله قدامه على الدابة . وأغلقت الكنائس التى لهم بالقاهرة ومصر والجيزية ، وبقيت كنائس الوجه القبلى والوجه البحرى مفتوحة لم تغلق إلى أن دخلت سنة ٧٠١ هـ ، ومضى منها شهورٌ فأغلقوا بعض كنائس البلاد . أما ديارة [٢] الرهبان وصوامعهم فلم يُتعرّض إليها بغلق ولا أذى .

وفى شهر شوال سنة ٧٠٠ هـ ، وصلت مطالعت النّواب بالبيرة وحلب بوصول رُسل من جهة قازان ملك التتار عدتهُم خمسة أنفار من جملتهم قاضى الموصل . فجُهّز إليهم الأمير سيف الدين كراى السلحدار المنصورى ليحضرهم . وكان طلوعهم القلعة ليلة السبت الحادى عشر من ذى القعدة خُفْيةً ، وجمع الأمراء جمعاً عاما لسماع رسالة القاضى المذكور وهو كمال الدين موسى بن يونس [٣] ، وهو من نسب مشهور ، وبيت فضيلة مذكور . وجلس السلطان بالإيوان الكبير الأشرفى بالقلعة ، وأوقد من الشموع ما صيّر الليل نهاراً ، وخُيِّل الإيوان فلكا قد تضمن شموسا وأقمارا . وحضر الرسول ، فقبّل الأرض ثلاثا ، وأدى رسالته ، وخطب عند افتتاحه الكلام خُطبةً بديعة النظام ، بسط فيها لسانه ، وأبان بها بيانه ، وذكر سلطانه ، وأحضر كتاب مُرسله ، فكان فحواه إخباراً بإسلامه ، وعتابا لعدم الرغبة فى إلمامه ، وأشعاراً بأنه راغبٌ فى مسالمة الإسلام ، مطالبٌ بالهدية الدّالة على حفظ الذمام ، فَعُلم مضمون

---

(١) أورد المقريزى فى السلوك ١-٣/٩٠٩ - ٩١٠ ، أسباب هذا الإلزام .

(٢) كذا فى الأصل ولعل المقصود هو الأديرة جمع دير . وهو يجمع أيضا على أديار وديورة وديارات ، وهو مقام الرهبان أو الراهبات .

(٣) انظر المقريزى ، السلوك ١-٣/٩١٥ ، والحواشى ، وكذلك الملحق رقم ١٤ .

كتابه وماشافه به رسوله من خطابه ، وأُعيد له الجواب بما اقتضاه الصواب ، وسفرّوا رسله بعد تجهيزهم صحبة الأمير سيف الدين كراى ، الذى وصلَّهم فأوصلهم إلى حلب .

وفى سنة ٧٠١ هـ ، عزل الأمير شمس الدين الأعسر من وزارة الديار المصرية ، وولى عوضا [عنه] الأمير عز الدين أيبك البغدادى ، أحد الأمراء البرجية .

وفيها اتفقت وفاة الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد ، ودفن بتربته بالقرافة . وهو أول خليفة دفن بمصر من العباسيين . وبويع لولده سليمان ، وسُمى الفضل أبا الربيع ، ولُقب بالمستكفى [١] ، وخطب له وأطلع إلى القلعة ، واحُتفظ به . وقد كان والده مُحتفظا به فى بعض أبراج القلعة فى الدولة الظاهرية والأيام المنصورية . ولمّا ولى الملك المنصور حسام الدين لاجين السلطنة أفرج عنه وأسكنه الكبش ، وهو المعروف بالشرف الأعلاء .

وفى هذه السنة ، ظهر بالقاهرة إنسان سخيف العقل ، مُختلف النقل ، ادّعى أنه المهدى ، وزعم أنه من نسل الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ، وأنذر بأمور كثيرة ، وقطع منها بأن العدو يطرق البلاد فى رجب ، ويرى الناس غاية العجب ، فأُمهِل إلى الوقت . ولمّا لم يتم شىء مما قاله ، وتبين الناس اختلاله ، فعُزّر وأُشهر وأُطلق سبيله .

ثم من بعد أيام قلائل ، كان بالقاهرة المحروسة شخص من الفقهاء الذين حضروا من الشام ، كثير الكلام ، قليل الضبّط للسانه والاحتشام ، فرُمى بالزندقة ، واتُهم بفساد العقيدة ، فأفتى الحكام بقتله ، وضُربت رقبته بين

---

(١) جاء فى المقريزى ، السلوك ١-٣/٩١٩ « المستكفى بالله » .

القصرين بالقاهرة ، ويعرف بابن البَقَقِى ، من أهل دمشق [١] .

وفى العشر الأول من جمادى الأولى منها سنة ٧٠١ هـ ، وردت الأخبار بأن العُربان انقلبوا إلى الفساد من قطع الطرقات ، وارتكاب المُحرمات ، فرأى الأمراء الأكابر أنه لابُدّ من إخماد فتنتهم ، واستئصال شأفتهم ، والاقتصاص منهم عما أسلفوا ، وإتلافهم بمن أبادوا من الأنفس وأتلفوا ، اقتداء بقوله فى محكم الكتاب : ﴿ وَلَكُمْ فى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ياأُولِى الْأَلْبَابِ ﴾ [٢] . وقالت العرب من كلام حكمتها « القتل أنفى للقتل » ، وقال أبو الطيب المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فتوجه الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ، والأمير ركن الدين الجاشنكير مُشير المملكة ، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جَاندار ، وجماعة من الأمراء الأكابر ، وتفرقوا على الطرقات ، وساروا على عدة جهات ، فمنهم طائفة توجهوا من وسط البلاد ، وطائفة من البر الشرقى ، وفرقة من البرّ الغربى ، وجُرّدت جماعة إلى الواحات ، وجماعة إلى الطور ، وجماعة إلى جهة القلزم إلى برية العَربة ، وأحاطوا بالعربان من كل جانب ، وأنشبوا فيهم مخالب المصائب ، وشتتوا شملهم فى الآفاق ، وأذاقوهم من النهب والقتل أمرّ المذاق . وكان عدة من أبيد منهم قريب ثلاثة ألف نفر ، سوى من أخذ أسيرا ، وسجن شهورا . وعادت العساكر بأموالهم وخيلهم وجمالهم . وكان ما حصَل للسلطنةِ منهم من الخيول خمسة آلاف فرس ، ومن الجمال تقدير ثلاثة آلاف ، ومن الغنم ما يزيد على مائة ألف رأس ، غير ما اختلسه الأجناد وتبعهم من الغلمان والسواد . وعاد الأمراء المذكورون فى الرابع والعشرين من شعبان .

---

(١) ذكر المقريزى فى السلوك ١-٣/٩٢٣ أن اسمه « فتح الدين أحمد البققى الحموى » أى من أهل حماه . وانظر سبب قتله فى المرجع نفسه ص ٩٢٥ وزيترسين ، ص ١٠٥ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ١٧٩ .

وفى العشر الأوسط من رمضان ، جُرد الأمير بدر الدين أمير سلاح ، والأمير عز الدين أيبك الخزندار ، وبعض الأمراء والعسكر إلى جهة سيس ، وأغاروا على الجهة المذكورة ، وعادوا فى العشر الأول من شهر المحرم سنة ٧٠٢ هـ .

وفى الثامن من المحرم ، وصلت رُسل أخر من جهة قازان بالمداهنة فى صورة المهادنة ، والمخادعة فى هيئة الموادعة . ونسخة الكتاب الوارد من جهته :

« جماعة الأمراء اعلموا أنّ نحن جُندُ الله خلقنا من سخطه ، وسّلطنّا على من أقدم على معصيته ، ولكم فيما مضى معتبر ، فانظروا إلينا بعقولكم ، وسلّموا إلينا أموركم قبل أن ينكشف الغطاء ، ويعود عليكم الخطاء ، فسيوفنا صواعق ، ورماحنا خوارق ، وسهامنا رواشق ، وقلوبنا كالجبال ، وعدَدنا كالرمال ، والعساكر لدينا لاتنفع ، والحصون من أيدينا لاتُمنع ، ودعاؤكم علينا لايستجاب ولا يُسمع ، لأنكم أظهَرتم البدع ، واستحللتم الحَرام ، وأكلتم مال الأيتام ، وأنتم أهل الظلم والعدوان . فملكُنا لا يُرام ، وجارنا لايُضام ، ونحن ملوك الأرض شرقا وغربا ، ونأخذ أموالكم سلبا ونهبا ، ونأخذ منكم كل مدينة غصبا . أنتم تقولون أنّ نحن الكفرة ، وأنتم عندنا الفجرة ، فقد سلّط الكفرة على الفجرة من له الأحكام المُدبّرة ، والأمور المُقدّرة ، وقد أنصفناكم إذ كاتبناكم ، والسلام » .

فلمّا ظهر من مضمون كتابه ومكنون خطابه ، فرط كبريائه وإعجابه ، كُتب إليه الجواب ، وجُهزت إليه رُسُل من الأبواب وهم : الأمير سيف الدين ازدمر المجيرى ، والقاضى عماد الدين بن السكرى ، خطيب الجامع الحاكمى بالقاهرة . وهذا كتاب نسخة الجواب :

« أما بعد ، فإنك عَبدٌ غلب الهواء على عقلك فأراك القبيح حسناً ،

والسمج مُستحسنا ، فأطمعك أملك الخائب فى نيل النجوم ، وجَسّرك طمعك الكاذب فبادرت إلى قنص الأسود بالهجوم . لتعلم إذا نزل بك الخطب أن ليس لك منه ولّى ولا ناصر ، ولو كان لك أمير أو عندك عاقل مشير لأشار عليك بطلب العفو عما اجترمته من الجريمة ، وارتكبته من العَظيمة ، من الملك الناصر ، والأسد الكاسر ، ومن عساكره الليوث العوابس ، والبدور فى الحنادس ، الذين ضاق عليهم الفضاء ، وتحرقت أكبادهم عليك باللظى ، فالنفوس تتلهب عليك غيظا وحنقا ، والعيون تفتتا من الجلامد عند اللقاء ، قد أكل الحقد أكبادهُم ، وقدح الأسف زنادهم ، فهم بين متأسفين عليك ، ومتشوقين إليك ، قد ندموا على ما فَرط من أيديهم ندماً أفاض منهم العيون دماً ، فما بينك وبينهم سوى أن تطلع عليك أعلامهم المنصورة ، وفرسانهم المشهورة ؛ فتأهب لحرب تُنسيك ما حل بآبائك الأقدمين ، وتُعرّفك سوء عاقبة الظالمين . وعجبنا بافتخارك بما جرى فى هذه الوقعة ، وبما أظهرت بها من المفخرة والسُّمعة ، فلو رجعت إلى عقلك الغائب ، وظنّك الخائب ، وأملك الكاذب ، لعلمت أن الجواد يكبو ، والشمس المنيرة تخبو ، وإذا حُقق معك المقال ، ووقع التناصف فى المحال ، علمت أنك المخذول المقهور ، وعسكرنا هُو القاهر المنصور ، لأن الذين قاتلوا من عسكرنا شرذمة يسيرة ، وعِصَابة غير كثيرة ، وقد قتلوا من عسكرك أمما كثيرة ، وعساكر عظيمة حقيرة ، وكم لنا من قَبلُ من هزيمة ، وكم لنا عليك من يد جسيمة ، وما نفتخر بشىء منها ، ولا نخبر بشىء عنها ، فأنتم أعدم الأمم نخوة ومروءة ، وأقلهم شِدة وقوة ، إنما تقاتلون بأميال من بعيد وتفتخرون بكثرة العُدد والعديد ، وعادة آبائك الاعتصام منا بالفرار وتولية الأدبار ، فتداركوا مافات ، وجنّبوا جموعكم القتل والشتات ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، فلولا أنكم تُلِمّون بالإسلام ، والتزام الأحكام ، لغزوناكم فى

أماكنكم ، وأخرجناكم من مواطنكم ؛ وقد أعذر من أنذر ، وأنصف من حذر ، وقد قال الله تعالى فى كتابه المبين : ﴿ وإمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فانبِذْ إلَيْهِم على سَوَاءٍ إن الله لا يُحِبُّ الخائِنِينَ ﴾ [١] . فخذ ما اشترطناه عليك ، والتزم مارسمناه إليك ، فقد غزوت غزوةً لاانفصال إلا بالتزامها ، وهفوت هفوة تؤذن لغزوتك بانفصامها ، ولولا ما جلونا عليك من العلم ، وعجلّنا عليك من الحلم ، لعاجلناك بالعقوبة قبل الإنذار . فحذار من المخالفة حذار » .

وتوجه الرسولان المذكوران فوصلا إلى بغداد فى شهر ربيع الآخر . ولما وصلوا إلى بغداد استحضرهم قازان ، ورسّم للقاضى عماد الدين أن يتوجه إلى بعض المدارس ، والإلمام من الفقهاء بمن يجانس ، وأحضر المجيرى واستعاذ منه المشافاة ، فأعادها عليه ، وأوصل الكتب السلطانية إليه ، وإنه قال له « أنا سمعت أنه لما وصلت إليكم رُسلى جمعتم العساكر التى لكم فى الليل ، وألبستموهم الثياب المزركشة ، والخلع الذهبية المُدهشة ، وأريد أن أريك مقدار عساكرى . ثم أمر أن يُطاف به على خيام عسكره ، وكان هو صفّهم على ترتيب متوال ، ونظام متتال حتى تطاول مداهم ، وامتدوا فى عين من يراهم . فطيف بالمذكور فى العسكر أياما ، ثم أُعيد إليه ، فُرسّم عليه ، وأودعه الحِلة وقيل الكوفة .

وأما غازان وعساكر التتار ، فإنهم شتّوا مما يلى بغداد إلى الموصل ، وانتهوا إلى الخابور [٢] ، وامتدوا إلى أطراف البلاد ، وتقدمهم قطلوشاه قريب شاطىء الفرات ، وكتب إلى النواب الذين بالثغور الحلبية والأطراف الفُراتية بأن تستقر الرعيّة على حالها ، ولا يجفل أحد من مكانه ، ولا يرحل عن أوطانه ، وإن قازان

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ .

(٢) نهر كبير منبعه عند رأس عين ومصبه فى الفرات ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/٣٣٤ .

عازم على المجىء إلى الشام ليُقرر الصُلح بينه وبين السلطان خداعاً منه ومكراً ، ودهاءً ونُكراً .

ولما كان فى الرابع من شهر رجب سنة ٧٠٢ هـ ، وصل الخبر على أيدى البُرداء [1] بأن التتار قد قصدوا البلاد ، فعند ذلك تأهبت العساكر الإسلامية ، وجفّلوا الرعية من الأطراف الفراتية والحلبية ، وأخذوا فى الاستعداد ، واستخدام الأجناد ، وإعداد العُدَد والأعداد ، وجُمع عُربان البلاد ، وحُشد الفرسان للجهاد ، واتفقت الآراء فى المشاور ، وأجمع الأمراء الأكابر على تجريد مقدمة العساكر ، فجرّد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والأمير حُسام الدين استاذ الدار ، وجماعة من الأمراء . قال الراوى : وكنت فى جُملةِ العديد ، وزمرة هذا التجريد . فاستخرنا الله تعالى فى الحركة ، وسرنا على اليُمن والبركة ، ورحلنا من مسجد التبن فى الثامن عشر من رجب الفرد . واتصل بنا عنه حقيقة الوصول بأن غازان وصل بنفسه تلو العساكر إلى الرحبة ، وقصد نزالها ، ورام قتالها ، وأن النائب بها ، وهو علم الدين سنجر الغتمى ، ساسَهُم ولاطفهم ، وأخرج لهم الإقامة صحبة ولده ، وقال : إن الملك لا يُتعب نفسه ولا رجاله فى هذا المكان ، فإن مرامه يسير ، وأمره حقير ، وهو الآن متوجه لمن قُدّامَه من العسكر ، فإن كسرهم فهذا المكان فى قبضته ، وأنا غلامه وفى طاعته ، فاستوقَفَهُ عن المنازلة ، وأخّره عن المعالجة . وقيل إن قازان عرض له مرض الفالج ، فعاد من الرَحبة راجعا ، ورجع إلى بلاده مسارعا ، وتقدم إلى قطلوشاه بالتقدم هو ومن معه . ولمّا وصلنا إلى دمشق أخبر الكُشّاف المرسلون بوصول العدو إلى قارا ، ونزولهم بها نهارا ، فعند ذلك تعيّن الاستعداد والتأهب للجهاد ، وأجمع الأمراء على أنه لا يكون لقاء إلا بعد الاجتماع بمولانا السلطان ، والرجوع إليه حيث كان . فتأخروا إلى جهة قرن الحرة وتل الفرس ، فلما رأى أهل دمشق

---

(١) رجال البريدية ، من يُبْردُ البُرد ، ومفرده البريدى .

تأخر العساكر ، أيقنوا أن لا قوة لهم ولا ناصر . فعجت أصوات الأكابر منهم والأصاغر ، وأعلن سوادهم بالشتم الظاهر . وبينا أنا مفكر فى هذا الأمر ، مرّ بى بريد راكض ، فساءلته عن السلطان ، فأخبر باقترابه ووصوله فى أطلابه ، فقصدت تحقيق روايته ، والوقوف على كتبه ، فأخذتها منه غصبا ، وأوجعته ضربا لما كنت فيه من التحرق على الإسلام ، والقلق الذى منع الأجفان لذيذ المنام . فلما وقفت على الكتب ، وتيقنت وصول السلطان عن كثب قرأتها على الأمراء ، وأخذت فى ردّ العساكر التى قصدت التأخير ، وعجلت إلى الرجوع المسير ليعودوا إلى مرج الصُفّر ، فتراجعوا إليه أولاً فأولاً ، وسكن بعض من كان مُجفلاً ، وبعضهم استخفه الروع وتم سائرا ، حتى أن أوائل الراجعين إلى ورائهم وصلوا إلى قرب مولانا السلطان ، فلما رآهم العسكر الذين معهم انزعجوا وارتاعوا ، وكاد أكثرهم يفر قبل المُصاف لولا ما تدارك الله به من الألطاف . ولما أطل السلطان علينا ، ووصل إلينا ، قويت القلوب الخائفة ، وأضحت بالتأييد واثقة ، وترتبت العساكر طلباً فطلباً ، ووقفوا ميمنة وميسرة وقلبا . وكان فى الميمنة الأمير حسام الدين الرومى استاذ الدار ، والأمير مُبارز الدين بن قرمان ، والأمير بهاء الدين يعقوبا ، والأمير جمال الدين الموصلى قتّال السبع ، وفى جناحها الأمير سيف الدين قفجاق ، وعرب الشام . وكان فى الميسرة الأمير بدر الدين أمير سلاح ، والأمير شمس الدين قراسنقر نائب السلطنة بحلب ، والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار ، ونحن إلى جانبه . وكان فى القلب الأمير سيف الدين سلّار كافل الممالك الشريفة ، والأمير ركن الدين الجاشنكير ، والأمير جمال الدين أقش الأفرم نائب السلطنة بدمشق ، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار . وكان ذلك على طرف مرج الصُفّر مما يلى جبل غباغب . وما [أن] تكامل الترتيب ، وترتّب التطليب إلا والنقع قد ثار ،

وعجاج العدو قد سود وجه النهار ، ولاح سوادهم من جهة جبال الكسوة كقطع الليل ، أو كمد السَّيل ، وكان السبب فى هجومهم ، وعجل قدومهم أنهم أمسكوا رجالةً فى الطريق فسألوهم عن أخبارنا ، فقالوا لهم إن السلطان ما حضر بعد ، وأن العسكر ولوّا مدبرين ، فساقوا عند ذلك ، فأداهم ذلك المساق إلى السياق ، وقادهم ذلك الإقدام إلى زلزال الأقدام ، فجاءوا إلينا بجيشهم اللجب ، وجمعهم الذى كاد منه ضياء الشمس يحتجب ، فلم يكن بين وصولهم ووصول السلطان إلا كلمحة طرف أو خطة حرف . وكان التتار فى الترتيب وصورة التطليب اثنى عشر توماناً ، لكنهم على التحرير كانوا يُكَوِّنُون تسعة ثُمانات كاملة [1] . وكان فيهم من مشاهير مقدميهم قطلوشاه نُوين ، وسوتاى اقطاجى ، وجوبان بن تُداون ، ومولاى وقرمشى بن الناق ، وطوغان ، وشبوشى بن قطلوشاه ، وطُغرل بن أجَر ، وابشقا ، وأولاجعان ، وألكان ، وطيطق . وعدّوا نهر الكسوة ، وطلبوا كتف المصرى حسام الدين استاذ الدار ، والأمير مبارز الدين بن قرمان ، وأيدمر النقيب ، وأيدمر الرّفا ، وأيدمر القشاش ، وأقوش الشمسى الحاجب ، وسنقر الكافرى ، ومن العسكر المنصور تقدير ألف فارس من رجال الحلقة ، ومماليك الأمراء وغيرهم ، كلهم فى ساعة الصدمة ، وحالة الهجمة ، وفازوا بمنازل الشهداء ، ونالوا مراتب السعداء . ولما عاين الذين فى القلب ما أصاب الميمنة ، أردفوهم وهم : الأمير سيف الدين سلار ومن ذكرناه معه من الأمراء ، ثم أردفت الميسرة القلب ، وتكردست [2] العساكر بعضاً يتلو بعضاً ، وصاروا كأنهم بنيان مرصوص لا يستطيع الدهر له نقضا . فلما شاهد العدو تلك الجيوش الممتدة ، والجُنُود العظيمة العدة

---

(١) ذكر بيبرس المنصورى فى الزبدة ، الورقة ٢٣٨ ، أنهم « فى حقيقة العِدّة تسعين ألفا من الفرسان » .

(٢) اجتمعوا بعضهم على بعض .

والعُدّة ، وتقدموا إليهم ، وبذلوا السيوف فيهم ، فانكسروا لوقتهم ، وولّوا مُدبرين ، وانقلبوا خاسرين ، وفرّ أكثرهم فى تلك العشية مع مُولاى . وكان ذلك فى يوم السبت الثانى من شهر رمضان ، وأتى المسلمون عليهم ، ونهضوا إليهم ، ونالوا منهم قتلا وسلبا ، وأسراً ونهباً . ولجأت الطائفة الّتى صدمت الميمنة إلى جبل غباغِب ، وباتوا به ليلتهم تلك ، وأوقدوا حَولهم ناراً ، ولم يزالوا على حَرسٍ إلى صباح الأحد الثالث من شهر رمضان ، فأحاطت بهم العساكر المنصورة ، وناوشتهم القتال من باكر إلى قريب الظُهر ، فعطشت خيولهم ، واضطربت عقولهم ، وتسلل إلينا منهم أقوام ، وأخبرونا بأنهم لما ضاق بهم الأمر ، وأحاط عليهم العسكر حوطة الحصر ، جاء جوبان أحد مقدميهم إلى قُطلوشاه ، وقال له : أريد أن تعطينى عسكرا أهجم به على المسلمين ، فما وافقه على ذلك ، فعاتبه وقال له : أنت الذى غَرّتنا وسقتنا إلى هاهنا ، وخالفت ما رسَّم لك به قازان ، فإنه لم يأمرك بالتقدم إلى هذا المكان ، بل أوصاك أن تقيم بحمص ولا تتعداها ولا تتقدم إلى مكان سواها ؛ وضرب فرسه وولى عنه ، وجمع أصحابه ، وحملوا على حَمّيةٍ ، ونزلوا من الجبل طالبين طريق الرحبة ، ونزل من بعده أبشقا ومن معه فى طُلب ثانٍ ، وتبع أصحابه غير وانٍ . وأما قطلوشاه وطيطق ومن كان معهم ، فإنهم نزلوا بعد ذلك قوماً تلو قومٍ ، وأمهلهم المسلمون ريثما تقدموا ، ثم ركبت أكتافهم العساكر ، وحكّموا فى هامهم البواتر ، ولم يزالوا يوسعونهم قتلا إلى أن دخل الليل ، وتمكن من عدّو الدين الذُّل والويل ، ورجع المسلمون مظفرين ، وعلى الأعداء منتصرين . ثم إنّ مولانا السلطان جهّز البُعوث فى آثارهم ، فتبعوهم إلى أن تجاوزوا الرحّبة ، وقد تمزقوا كل ممزق ، وتشتت شملهم وتفرّق . وبلغنى أن الذين عدّوا منهم بحر الفرات غرِق أكثرهم ، ولم ينج منهم إلى بلادهم إلا القليل لأنهم هلكوا عطشاً وجوعاً . ووصل قاصد وأخبر بأنه لم

يصل إلى بلادهم من كل تومان إلا شرذمة يسيرة ، وعدة حقيرة . ثم تحقق الخبر بأنه لم يصل إلى بلادهم إلا زهاء ثلاثين ألفا لا غير . وفى وقت وصولهم إلى قازان ، ورد عليه الخبر بأن قيد وجرّد أخا نوروز إلى خربندا أخى قازان ، فكسره أخو نوروز المذكور بخراسان ، وجاءته رسُل طقطاى تطلب منه توريز [١] وبلادها ، وإلا الاستعداد للملتقى . فتواترت أنكاده ، وتناقصت أعداده . وفى الخامس والعشرين ، وصل الركب السلطانى إلى دمشق ، فخرج أهلها كافة لاستقباله بعد نصرته على التتار [٢] ، وفرحوا بإيابه إليها واستقلاله . وكان يوما مشهودا ، ومن جُملة الأعياد معدودا . وجهّز السلطان إلى قازان كتابا يذكره فيه ، ويُعرّفه أن مكر الله به كان خيراً من مكرِه ، ويوعز إليه بأن يرسل الرسل [٣] الذين عنده ، ولا يحوج بسببهم إلى كتاب آخر بعده .

وفى الخامس والعشرين من شوال ، استقل الركاب الشريف من دمشق ، ووصل إلى القاهرة المحروسة ، ودخل من باب النصر ، وشقّ فى وسطها . وكانت قد زُيّنت زينةً مارآها الراؤون ، ولا روى كأخبارها الراوون . وصلى بتربة والده السلطان الشهيد ، وشمل الفرح بسلامته ونُصرتِه القريبَ والبعيدَ . وكانت مدة غيبته وأوبته ثمانين يوما ، فيها توجه إلى الشام ، وكسر التتار ، وعاد إلى قلعته . وقد كان السلطان استصحب فى سفرته هذه مولانا الخليفة أبا الربيع سليمان المُلقب بالمستكفى بالله أمير المؤمنين ، على سبيل التبرك بمسيره . ولما عاد السلطان ، صار الخليفة يركب معه الميدان ، ويحضر معه لعب الصولجان ، وأبان بذلك عن جزيل الفضل والامتنان . وذكر الشعراء هذه النصرة ، ونظموا فيها

---

(١) أو تبريز ، وقال القلقشندى فى صبح الأعشى ٣٥٧/٤ ، أن إبدال الباء واوا هو النطق الجارى على ألسنة العامة .

(٢) هذه الجملة كتبت فى الهامش بخط مُغاير .

(٣) رُسل السلطان الذين استبقاهم وتحفظ عليهم قازان وهما : الأمير حسام الدين المجيرى والأمير عماد الدين بن السكرى ، انظر ص ١٢٠ .

الأناشيد ، وقالوا فيها كل قصيد كالدر النضيد . وقد أوردنا بعض مامرّ بنا من ذلك ، إذ ليس الغرض الإطالة بكثرة الأشعار ، بل الغرض إنما هو الإيجاز والاختصار . فمن ذلك ما قاله عبد الواحد التبريزى الخطيب بعجلون ، من قصيدة أولها : شعـــر [١]

الله أكبر جاء النصر والظفرُ ... والحمدُ للهِ هذا كنت انتظرُ

ومنها :

أين النجوم وتأثير القِران وما ... تخرصّوا فيه من إفك ومازجروا

قد دبّر الله أمرا غير أمرهم ... وخاب مازخرفوا مَيْناً وماهجروا

ومنها :

كنانة الله مصر جُندها نُثلتْ ... لاريب فيه وجند الله منتصر

ثاروا سراعا إلى إدراك ثأرهم ... وهَجَّروا فى طلاب المجد وابتكروا

وأسهروا أعيناً فى الله مارقدت ... أكْرِمْ بقوم إذا نام الورى سهروا

ومنها :

وأوجفوا نُفّرا بالخيل ملجمةً ... وبالركاب وما ملّوا ولا فتروا

حتى أتوا خلقاً فى يوم ملحمة ... فيه الأسود أسود الغاب تهتصر

ومنها :

قولوا لغازان ياذا ما لعلك أَنْ ... تروغ عن مِخْلب الرِّئبال [٢] يانُغَرُ [٣]

---

(١) أضيفت هذه الكلمة بخط مغاير .

(٢) وجمعها رآبيل ورآبلة وهو الأسد .

(٣) فرخ العصافير .

ومنها :

جاءوا وقد حفروا من مكرهم قُلُباً   ألقاهم الله قسراً فى الذى حفرُوا

ومنها :

أمُّوا الفرات وقد راموا النجاة فكم   حلَّت بهم عِبرٌ فيها وما عبروا

مرائر القوم من خوف قد انفطرت   والكل من قبل عيد الفطر قد نحروا

ومنها :

وكل ذنب جفاه الدهر مُعتمدا   فى جنب ما أبقت الأيام مُغتفرُ

وذكر كون الخليفة مع السلطان ، فمنها :

به إلى الله ضجّوا فى حوائجكم   وبعده بالمليك الناصر انتصروا

ملك أعيد به عَصر الشباب لكم   مُسترغداً ضافنا واستؤنف العمر

ومنها :

وافاكم لعزيز النصر فى نفر   وقاهم الله ما أوفاهُم نَفَرُ

كم فرّجوا مأزقا ضنكا بمعتزل   وكابدوا فى مجال الموت واصطبروا

فبيّض الله منهم أوجها كرمت   فإنهم بالأيادى البيض قد غمروا

قال المصنّف ، ووافى إلينا من الديار المصرية جواب عن كتاب صدر منّا بالبشرى إلى نوابنا ، تضمن أبياتا أرسلها مُسّطر [١] تاريخنا هذا ، لأنه كان من ألزامنا [٢] .

وهـــى :

خُلـقت مُظَفّـراً براًّ وبحرا   وعزمك ماضيا شاماً ومصرا

---

(١) أى كاتب هذا التاريخ :

(٢) جاء فى حاشية الأصل : وهو القس الشمس بن كبر ، نيّح الله نفسه ، آمين . وهذا يدل على أن مصنف هذا التاريخ هو بيبرس المنصورى ، والذى سطره وبيضه هو ابن كبر ، انظر المقدمة ص (ى) .

وفكرك ثاقب فى كل أمر ورأيك أسعد الآراء طُرا
وما سارت ركابك فى جيوش قسمتهم يد العدوان قسرا
ولا كنت المقدم فى خميس فعاد . بخَيبةٍ أو خاف كسرا
ولا وليّت عن حرب هزيما ولو كان اللقاء بجيش كسرى
ولا صاحبت رَكْباً فى مسير فنال مشقة أو ذاق عُسرا
وجَدُّك سعده أبدا جديد وسعدك جالب للترك نصرا
وحدك فى مُحاربة الأعادى يبدد شملهم قتلا وأسرا
وحزمك دائما فى كل خطب يفرج كربة ويزيل ضرا
وهمتك التى شاعت وذاعت تزيل ملمة وتسد ثغرا
ووجهك حيثما وجهت يجلو دياجير الوغى وينير بدرا
نهدت إلى الحجاز فكنت غيثاً فكم أطفأت حين أطفت جمرا
وسرت إلى الشآم فكنت غوثا رفعت مذلة ووضعت إصرا
فعام فيه حج جاء زجرا وعام فيه غزو كان أحرى
كذا كان الرشيد وأنت حقا رشيد الأمر فى دنيا وأخرى
واعتقت الخلائق من عدوٍ شديد رام أخذ الملك قهرا
عَدّو غرّه أمل كذاب فكان على الحقيقة فيه غِرًّا
وغَرّته السلامة عام تسع وتسعين فظن الريح زمراً
توغل فى البلاد وليس يدرى بأن أمامه أسداً هِزَبْرا
له رأىٌ يُعادل ألفَ ألِف وصبرٌ ثابتٌ ناهيك صبرا
وقصدٌ خالص لا غشَّ فيه نواه لربه سرا وجهرا
وبايع نفسه بيعا صحيحا ليَشْرِى جَنَّةً بالروح تُشْرى
وصمَّمَ لا بَرَاحَ له فإمّا نجاحاً أو يُنيل النفس عُذرا
فعامله الإلــه بما نواه وأذهب عن جميع الخلق شرا

وجاد بأنعم عظمت فلسنا نُوفى حقها حمدا وشكرا
فكم فيها لأهل الأرض أمن أعاد سلامةً وأزال ذُعرا
وكم خيرٍ عميم للبرايا ولطفٍ ليس نبلغ منه حصرا
وكم لك فيه من حظ جزيل وصيت يملأ الآفاق عِطرا
وكم لك من يد بيضاء جَلّت أجالت فى العدا بيضا وسمرا
وكم من كسرة فيهم توالت فآلت فى جميع الناس جبرا
أتت بُشراك مولانا إلينا فكانت للخلائق خير بشرى
لأن الخلق كانوا فى هموم كأن بهم من الأوجال سكرا
فأول قادمٍ وافى بخيرٍ كتابكم الذى سَرَّى وسَرَّا
ومنه كان نشر النصر بدياً بمصرٍ كُلّها بطنا وظهرا
أتى ظُهرا من الأحد المهنى فأظهر فرحة إذْ جاء ظُهرا
ومُذْ وَافَى نهاراً فهو شمس ولو وافى بليل كان فجرا
وأخبر عن عدو الدين، أمرا حقيقا لا يزيد عليه خُبرا
بمرج الصُّفَّر اجتمعوا فراحوا لحينهم من الأرواح صِفرا
وأمرهم به أضحى مريجا ووردهم المكدر كان مرا
وجاءوا فى جموع ليس تُحصى ألوف طبقت سهلا ووعرا
فصاروا كلهم للوحش قوتاً وأشبع لحمهم فى الجو نسراً
وشتت شملهم ضربا وطعنا مليك ينشر الأعلام صفرا
إذا ما أورد الرايات صفرا صدرن من الدماء الحمر حُمرا
وقرت أعين وهدت قلوب وأكباد من الأشجان حرّى
فبادرنا السجود وأى شكر يوازى هذه الألطاف قدرا
وجاءتنا البشائر مسرعات فأذهب بشرها كمدا وفكرا

فندعو الله فى قرب التلاقى لكى نوفى لرب العرش نذرا
كلاك الله بالأملاك حفظا وصانك دائما سفرا وحضرا

ووصلنا القاهرة المحروسة ، فأقمنا بها ، وقد أذهب الله عنا الحزن ، وضاعف لدينا المنح والمنن . وفى ليلة الجمعة عاشر ذى الحجة ، توفى كتبغا المنصورى بحماه ، ونقل إليها سيف الدين قفجاق من الشوبك عوضا عنه .

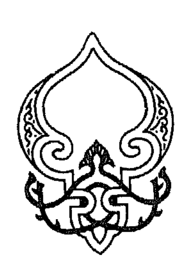
ولما كان بكرة يوم الخميس الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة اثنتين وسبع مائة ، حدثت زلزلة عظيمة [1] بالقاهرة ومصر والديار المصرية ، والبلاد الشامية والاسكندرية حتى انهدم منها المنار ، وتشعّثت الأسوار ، وذلك فى أقسام الساعة الأولى ، لم يُر مثلها فى سالف الأزمان ، وأثرت آثارا ظاهرة بكل مكان ، وهَدَمت من الأبنية شيئا حتى ظنها الناس قيام الساعة . وكان لها دوىّ يسمع ، وجرس يصدع ، واضطراب للقلوب يقرع . ولم يبق بالقاهرة ومصر مكان إلا وفيه دور قد سقطت ، وأركان قد انفتحت ، وجُدران قد تهدمت أو تشققت . وأما ببلاد الريف ، فتقطعت الجسور ، وتشققت الصخور ، وتفطرت الأرض ، فكم رُئى بها من فطور ، ونبعت المياه فى أراضى الخروس [2] ، وجرت منها أعين ، وامتلأت برك ، ومنها ما فار ثم لوقته غار ، ولم يبق منه سوى الآثار ، ومنها ما بقى أياما ، وشاهده الناس عيانا ، وسقط الكثير من المواضع والمساجد والجوامع ، حتى أن السلطنة قررت على الأمراء مقدمى الألوف ، وأصحاب الطبلخانات ، وأرباب العشرات ، مالاً برسم عمارتها ، وتحصيل آلتها ، فكان الذى خص كل أمير عدته عشرة فوارس خمسمائة درهم ، وعلى هذه النسبة

---

(١) انظر المقريزى ، سلوك ، ١-٣/٩٤٢ .
(٢) أى الأراضى التى لا تصلح للزراعة .

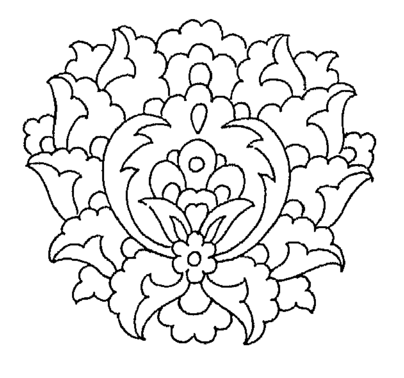
وزعت ، ومن الأُمراء المُقدمين طُلبت . ووصلت أخبار ثغر الاسكندرية بأن هذه الزلزلة هدمت أكثر أبراجها وأسوارها ومواذنها [١] ومنارها ، وتفطرت الصهاريج فى بعض أماكنها ، وسقطت عدة من مساكنها . ووصَل ... [٢]

* * *



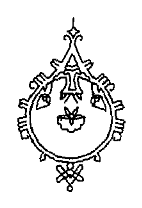
(١) لعل المقصود مآذنها جمع مئذنة .

(٢) هنا تتوقف المخطوطة لضياع بقيتها .



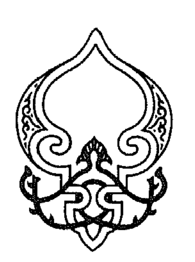
فهرس الأعلام

* * *



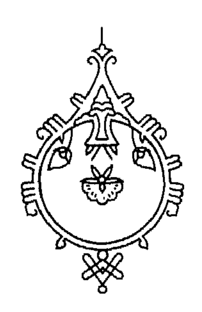
فهرس الأماكـــن

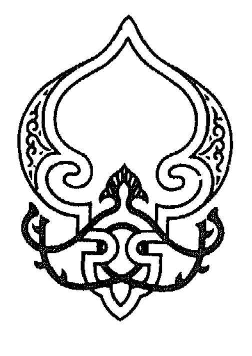
* * *



فهرس المصطلحات

* * *





فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

رقم الصفحة

الفهارس :

* * *

رقم الإيداع
٩٢ / ٩٥٤٨
I.S.B.N
977 - 270 - 049 - 2